

دار الكتاب الحديث

دار العيدروس للكتاب الحديث
موسوعة إسبانيا الإسلامية

العصر الأندلسي

نهاية دول الطوائف

الثورات والحروب في بلاد الأندلس



البروفيسور/ محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية - رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات

الثورات في إسبانيا الإسلامية - دور البربر في ثورة يوسف الفهري - الصراعات القبلية والعرقية - الخصومات العشائرية العربية في الشرق وصداها في إسبانيا - ثورات المستعربين - الجهاد ضد الأشتوريشيين والإفرنج - ثورة أهل ماردة - ثورة البربر في الجزيرة الخضراء - عصر الأمير عبد الله بن محمد - دور البربر في ثورة إشبيلية - الحروب الصليبية المسيحية ضد الإسلام والمسلمين في إسبانيا - الفتوحات الإسلامية بأوروبا الغربية - حول معركة بلاط الشهداء - أوروبا الغربية من سقوط روما إلى عظمة الإسلام - الزلاقة - المقاومة والمعارك مع الفرنجة خلال عصر الدولة الأموية بإسبانيا الإسلامية .

البروفيسور الدكتور
محمد حسن العيدروس

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة .
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية .
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971 .
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984 ، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الطفرة الجوية في أبو ظبي ، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ثم في جامعة الكويت 1993 - 2000 ثم في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002 ، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية المتحد
2002 - 2006 : الأمين العام للجنة الإمارات للتاريخ العسكري ، ثم رئيس مؤسسة اسكاندافيا للاتص
والتجاري في السويد من عام 2007 حتى الآن ، وهو عضو في العديد من الجمعيات العلمية الإقليمية والدو
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن ورئيس تحرير مجلة دراسات روتردام الإس
- صدر له أكثر من اثنى عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسات العربي
- نائب رئيس جمعية الناشرين الإماراتيين .





دار العيدروس للكتاب الحديث
موسوعة أسبانيا الإسلامية

العصر الأندلسى

نهاية دول الطوائف

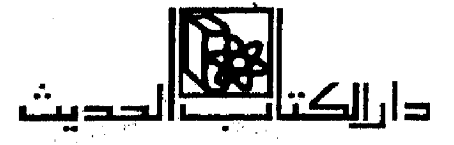
الثورات والحروب في بلاد الأندلس

البروفيسور / محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية –
رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات



العيدروس ، محمد حسن .
موسوعة أسبانيا الإسلامية/ محمد حسن العيدروس
. ـ ط 1. ـ القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2011
144 ص ؛ 24سم .
تدمك 2 449 350 977 978
1- الأندلس – تاريخ – ثورات وحروب - موسوعات .
أ- العنوان.
953.071203

رقم الإيداع 21012 /2011

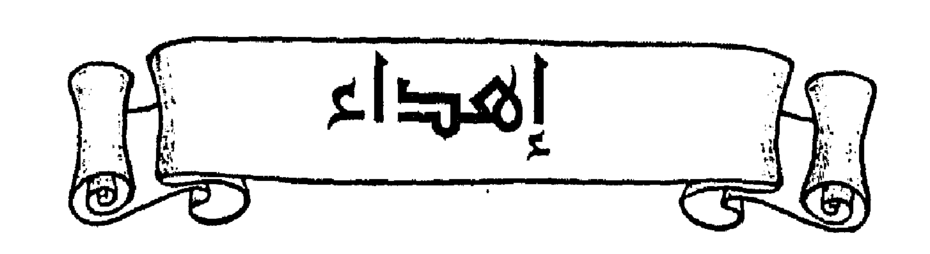


www.dkhbooks.com

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة]. ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١) ﴾ [الرعد]. ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (١٤٠) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]. ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ (١٢٠) ﴾ [البقرة]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤) ﴾ [النساء].



إهداء

إلى كل من دافع عن أرض الإسلام والمسلمين في وجه الأعداء الطامعين والمحتلين لأراضيها... إلى الذين قاوموا وكافحوا وقدّموا أرواحهم في سبيل الله وفي سبيل الإسلام والمسلمين ضد الاستعمار المسيحي البريطاني والفرنسي والإسباني والأمريكي. إلى الأتراك العثمانيين الذين أوقفوا الزحف المسيحي الصليبي لديار المسلمين أكثر من ستة قرون. وإلى الذين جاهدوا واستشهدوا وسقطوا جرحى دفاعًا عن كرامة الإسلام والمسلمين. وإلى كل من يدافع عن الأمة الإسلامية خير امة اخرجت للناس بكل الوسائل المتاحة سواء بالسلاح أو بالقلم أو بالدعوة الحسنة حاضرًا ومستقبلاً.

وإهداء إلى والدي المرحوم السيد الشريف/

حسن أحمد علوي العيدروس

والذي علمني بأن كرامة الأمة الإسلامية والإسلام هى أغلى ما فى الإنسان، وبدونها لا وجود للإنسان وللحياة الكريمة.

اطلب من الله سبحانه وتعالى أن يطيب ثراه

ويغمده الجنة إن شاء الله..

الفاتحة

إلى أرواح شهداء الإسلام والمسلمين الذين سقطوا دفاعًا عن الإسلام والمسلمين من عهد الدولة الإسلامية الأولى فى عهد الرسول والخلافة الراشدة والأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية حتى اليوم والغد وإلى يوم الدين»

رسالة الإسلام والسلام

مقدمة

من أجل الحوار السليم والسلام بين المسلمين والمسيحيين في العالم والتعايش السلمي بين الأديان، وليعرف الأوروبيون والغربيون المسيحيون كيف كان لمسلمي صقلية وإسبانيا والدولة العثمانية روح التسامح وحرية التعبير وممارسة المذاهب الدينية لغير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي، وكيف يعامل الأوروبيون الذين يدعون حقوق الإنسان وحرية الأديان للأقلية المسلمة في أوروبا؟ فكيف سبقهم المسلمون إلى ذلك قبل عدة قرون، في الوقت الذي تعاني الأقلية الإسلامية من اضهاد في ممارسة المعتقد الخاص بهم، وحرية اختيار الملابس وممارسة الشعائر الدينية. إلى كل المسلمين ليعرفوا، كيف كان أجدادهم بناة حضارة وقدموا للبشرية أروع النظم والحياة الإنسانية في أوروبا في العصور الوسطى، وكيف ساهموا في إثراء وتطور العالم الإنساني. أين هم الآن من ذلك؟! لماذا أصبحوا متلقين بعدما كانوا ملقنين؟ لأصبحوا يأخذون من كل شيء إيجابي وسلبي دون تمييز بعدما كانوا يعطوا أعظم القيم العليا الإنسانية والعلمية إلى العالم. وليعرف العالم المذابح ضد الإنسان والإنسانية والتطهير العرقي، وجرائم حرب الإبادة البشرية والإرهاب المنظم للدولة الذي ارتكبه المسيحيون في إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا والحروب الصليبية في سواحل سوريا ولبنان وفلسطين والرها وأنطاكية وبلغاريا والبوسنة وكوسوفو وصبرا وشاتيلا وجسر الباشا وتل الزعتر والشيشان وأبخازيا وجزيرة القرم والعراق وأفغانستان ضد المسلمين، وكيف عامل المسلمون المسيحيين في

إسبانيا وصقلية والدولة العثمانية، وكيف يعاملون في سوريا ومصر ولبنان وإندونيسيا ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية. هناك فرق كبير بين التسامح لدى المسلمين والإسلام وغيرهم.

الحمد لله والصلاة والسلام على هادي البشرية من الضلال والشرك إلى الهدى والهداية سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله والصلاة والسلام على آل بيته الطاهرين.

سادت حضارات ثم بادت، نشوء وارتقاء ثم السقوط، تلك هي الظاهرة التاريخية التي تتكرر في عالم الإنسان الذي يحاول فهمها أو يفهمها، وإن فهمها ينساها أو يتناساها، في حين أن أمة الإسلام هي أمة التوحيد الوحيدة في العالم منذ خلق البشرية حتى اليوم وإلى أن يرثها الله، ومنهجها القرآن الكريم والسنة النبوية إلى يوم الدين، من تعلق بها نجا ومن تركها سقط وضاع وانتهى. ومن هنا يرتبط تفوق الإسلام وسيادة وعالمية الأمة الإسلامية بمدى تمسكها وتعلقها بهذا المنهج وهذه الرسالة البشرية التي أنزلها الله على الأمة الإسلامية عن طريق رسوله محمد ﷺ. يرتبط تكالب الأمم المشركة بالله وأعداء الإسلام والمسلمين من الصليبيين المسيحيين بابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام وتخليهم عن رسالة الجهاد والحفاظ على رسالة الإسلام وعقيدته وقيمه الإنسانية العالمية الخالدة وما مدى تطبيقه والحفاظ عليه. ومن هنا كان تفوق الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وعندما ابتعد المسلمون عنها، ابتعد الله عنهم فسقطوا وانتهى ملكهم، وعندما طلب المسلمون العون والمساعدة من المشركين المسيحيين في إسبانيا ضد إخوانهم تركهم الله. وهذا ما أدى إلى ارتفاع قوة المسيحيين الصليبية بقيادة بابا الفاتيكان الذي أعلن الحرب الصليبية المسيحية على مسلمي إسبانيا قبل المشرق الإسلامي في سواحل الشام، وبذلك توافد آلاف المسيحيين من مختلف أنحاء أوروبا لقتل المسلمين في إسبانيا مما

أدى إلى سقوط آخر معاقلها في غرناطة ولم ينتهِ إلى هذه الحدود وإنما امتد إلى احتلال المغرب العربي حتى ليبيا.

هنا أرسل الله عباده المجاهدين من الأتراك العثمانيين الذين قاموا بطرد الصليبيين المسيحيين والحفاظ على المغرب العربي والمساعدة في إجلاء المسلمين من إسبانيا. ولا ننسى ما قام به المسيحيون من التطهير العرقي والمذابح الجماعية ضد المسلمين في إسبانيا وحرقهم وهم أحياء في احتفالات الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ البشري مثيل حتى قيام الأوروبيين المسيحيين الصرب بجرائم الإبادة البشرية والتطهير العرقي ضد المسلمين في البوسنة، أمام أنظار أوروبا والغرب المسيحي الذي يدعي الحضارة وحرية الإنسان، بل قام الجيش الهولندي من قوات حفظ السلام بمساعدة الصرب في جرائمهم.

وفي الختام آخر دعوانا أن الحمد لله، وأن الأرض يرثها لعباده الصالحين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آل بيته الطاهرين،،

البروفيسور الدكتور محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية

الثورات في إسبانيا الإسلامية

دور البربر في ثورة يوسف الفهري

عقد الصلح بين عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) من جهة ويوسف القهري والصميل بن حاتم من جهة أخرى في شهر صفر 139 هـ (يولية 756)، ودخل عبد الرحمن قرطبة وعلى يمينه يوسف الفهري وعلى يساره الصميل بن حاتم، وحظي كل منهما بعطف عبد الرحمن ورعايته واستشارته في الأمور الخطيرة. ولم يقنع يوسف الفهري بما ناله من حظوة عند الأمير عبد الرحمن، بل أخذ يحن إلى سلطانه القديم، وكانت بقرطبة بيوتات من موالي بني هاشم وبني فهر وقبائل قريش، وكانوا قد ظفروا على أيام يوسف الفهري بأرفع المناصب، فلما تولى عبد الرحمن بن معاوية إمارة الأندلس، فقدموا كل ما كانوا ينعمون به من امتيازات، فأخذوا يحرضون يوسف الفهري على خلع طاعة ابن معاوية ويحثونه على النكث بعهده معه ووعدوه بالنصر والتأييد ولم يتردد الفهري في الأخذ برأيهم وحاول أن يستميل الصميل بن حاتم وأنصاره من القيسية، ولكنه أخفق في ذلك، ولم يجد بدًا من الفرار من قرطبة قبل أن ينكشف أمره للأمير عبد الرحمن ورأى أن يمضي إلى ماردة مركز العصيان على الإمارة الأموية في غرب إسبانيا فمضى إلى ماردة 141 هـ/ 758 م، حيث اجتمع له زهاء عشرين ألفًا من العرب والبربر. فلما علم ابن معاوية بهروب يوسف الفهري لم يشك في أن الصميل بن حاتم قد شاركه في هذا التدبير، فسارع بالقبض عليه، وزج في السجن، كما ألقى فيه إلى زيد وأبي الأسود محمد ولدي يوسف الفهري. وخلال السنوات التالية تندلع ثورات البربر ضد الحكم العربي في شمال المغرب العربي

والأندلس، ويبعث الخليفة هشام بن عبد الملك جيشًا قوامه ثلاثون ألفًا من عرب الكور المجندة بالشام تحت قيادة كلثوم بن عياض القشيري، ولكن البربر عادوا لهزيمة هذا الجيش في خريف 123 هـ/ 741 م ولجأت فلوله إلى مدينة سبتة وكان يقودهم بلج بن بشير القشيري، وقد ضيق البربر عليهم الخناق، فاستغاثوا بوالي الأندلس وكان آنذاك عبد الملك بن قطن الفهري، غير أن هذا كان مدنيًا وكان لا ينسى ما أوقعه الجند الشاميون بالمدينة المنورة في موقعة الحرة 63 هـ/ (683 م)، فأعرض عنهم، غير أنه لما تفاقمت ثورة البربر في الأندلس أيضًا رأى أن يستعين بأولئك العرب المحصورين في سبتة فسمح لهم بالجواز إلى الأندلس، واستطاع هؤلاء فعلا أن يوقعوا بالبربر هزائم متوالية، ورأى عبد الملك بن قطن بعد ذلك أنه لم يعد بحاجة إلى هؤلاء الشاميين فطلب منهم أن يجلوا عن الأندلس، ولكنهم رفضوا وسرعان من طردوه من قصر الإمارة ونادوا بقائدهم بلج عاملا على الأندلس بدلا منه. ونشبت الخلافات مجددًا بين العرب من أهل المدينة والشاميين إلى أن يبعث الخليفة هشام بن عبد الملك واليًا أوصاه بأن يعيد السلام إلى البلاد، وكان هذا الوالي هو أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي الذي وصل إلى الأندلس سنة 125 هـ/ 743 م. ورأى أبو الخطار أن خير ما يحسم به هذه الفتنة هو تفريق الجند الشامين على كور الأندلس مراعيًا أن ينزل جند كل كورة شامية على ما كان يشبهها من أرض الأندلس. وهكذا أنزل جند دمشق بكورة إلبيرة (غرناطة (Granada))، وجند الأردن في كورة أرشذونة (Archidona) ومالقة وجند فلسطين في شذونة، وجند حمص في إشبيلية ولبلة، وجند قنسرين في جيان (Jaen)، وجند مصر في إقليم تدمير، مرسية وباجة وأكشونة (في جنوب البرتغال: المنطقة المعروفة اليوم باسم "Algarve" أي الغرب).

بدأ أبو الخطار ولايته بهذه السياسة الحكيمة، ولكنه لم يلبث أن مالت به عصبيته لقبيلته ولليمنية، فعادت الفتنة والحروب الأهلية من جديد، وأخيرًا هدأت الأمور بعض الشيء عندما اختار أهل الأندلس لولايتهم يوسف ابن عبد الرحمن الفهري الذي ظل أميرًا على الأندلس نحو عشر سنوات (747 م - 756 م) حتى قدوم عبد الرحمن الداخل.

الصراعات القبلية والعرقية

كان الجيش الذي اضطلع بالفتح الأول مع طارق بن زياد مؤلفًا في غالبيته من البربر، وكان لهؤلاء تنظيم قبلي يتوزعون فيه على قسمين كبيرين: البتر وهم بربر البدو، والبرانس وهم بربر الحضر، وكان بين الاثنين من التنافس كما كان بين العرب العدنانية أو المضرية وهم عرب الشمال واليمنية وهم عرب الجنوب. ثم دخل الأندلس مع موسى بن نصير جيش كان في هذه المرة ذا أغلبية عربية، إذ كان فيه نحو إثنى عشر ألفًا من العرب، وهذه هي التي تسمى «طالعة موسى»، وكان مع هؤلاء مجموعة كبيرة من الموالي الذين ارتبطوا بحكم هذا «الولاء» بالقبائل العربية، وفي 97 هـ/ 716 م قدم الحر بن عبد الرحمن الثقفي من المغرب العربي ومعه أربعمائة من وجوه أهل المغرب العربي، وكان هؤلاء نخبة من زعماء العرب. وتسمى هذه المجموعة «طالعة الحر». وكان يطلق على عرب هاتين الطالعتين الذين كانوا أول العرب استقرارًا في الأندلس اسم «العرب البلديين»، ثم قدم بعد ذلك مع بلج بن بشر القشيري عدد آخر من العرب يبلغون نحو عشرة آلاف وذلك في صفر - ربيع أول 123 هـ/ يناير 741 م. وهذه هي التي تسمى «طالعة بلج» ولما كان هؤلاء من الكور المجندة بالشام فقد أطلق عليهم اسم «الشاميين»، وسرعان من نشب النزاع بين البلديين أي عرب الطالعتين الأوليين والشاميين، ورأى أبو

الخطار الكلبي حسماً لهذا النزاع أن يفرق العرب الشاميين على كور إسبانيا كما سبق أن رأينا. ولكن النزاع ظل يتجدد بعد ذلك بين وقت وآخر. وبلغ هذا النزاع ذروته أيام عبد الملك بن قطن الفهري وقد انتهى هذا الصراع كما رأينا بمقتل ابن قطن وولاية بلج زعيم الشاميين على إسبانيا الإسلامية.

كذلك نشب صراع آخر بين قبيلتي العرب الكبيرتين: المضرية أو القيسية واليمنية. وكان هذا الصراع امتداداً لما كان يحدث في المشرق، وكان خلفاء بني أمية أنفسهم يؤثرون هذا النزاع فكانوا يقربون هذا الفريق تارة وذاك الفريق تارة أخرى معتقدين أن ذلك يضمن لهم السيطرة على الجانبين كليهما، وإن أثبتت الأحداث أن هذه السياسة كانت في النهاية من عوامل انهيار الدولة كلها. وكان اليمنية في إسبانيا أكثر عدداً من القيسية، ولكن هؤلاء كانوا عناصر تتميز بالقدرة والشجاعة والتماسك. ولذلك فقد رجحت كفتهم ولا سيما خلال السنوات الأخيرة من عصر الولاة منذ ولي حكم الأندلس يوسف الفهري (130 هـ/ 747 م) هو ومستشاره الصميل بن حاتم الكلابي وكأن هذه النزاعات لم تكن كافية، إذ أضيف إليها النزاع بين العرب والبربر، وقد زعم بعض المؤرخين أن السبب في ذلك كان استئثار العرب بأفضل أراضي الأندلس وأخصبها، بينما تركوا للبربر المناطق الجبلية القاحلة. غير أنه ثبت أن ذلك غير صحيح. وإنما نزل الفاتحون في المناطق التي استطابوا المقام فيها، وقد تكون كثرة إقامة البربر في المناطق الجبلية راجعة إلى تعودهم على سكنى مثل هذه المناطق في مواطنهم الأصلية في المغرب العربي. ولا تذكر المصادر أسباباً واضحة لثورة البربر في إسبانيا، وقد يكون السبب الرئيسي هو ما اتسمت به الدولة الأموية من الاعتزاز بالعنصر العربي واحتقار الأجناس الأخرى. ولكن الأرجح هو أن ثورة بربر إسبانيا كانت امتداداً لثورتهم في المغرب العربي. وكانت مبادئ الخوارج قد انتشرت في البلاد وصادفت هوى في نفوس البربر

لما كانت تدعـو إليه من مساواة بين العـرب وغيرهم، وقد تزعم هـذه الحركة البربرية الخارجية في إفريقية ميسرة المعروف بالحقير، وألهبت انتصارات ميسرة على العرب حـماسة بربر إسبانيـا خالد بن حميـد الزناتي الذي أوقع بالعرب هزيمة ساحـقة في الغزوة المدعوة «غـزوة الأشراف» 123 هـ/ 741 م في وادي شلف، فتجمع بربر إسبانيا وترك المقيـمون في أقصى الشمال الغربي مواطنهم وانحدروا إلى الجنوب وهم يقـتلون من في طريقهم من العرب أو يلجـئونهم إلى الفـرار، ولما رأى عبـد الملك بن قطن تأزم موقف العـرب سمح للـعرب الشامـيين الذين كانوا محصـورين في سبتة بقـيادة بلج بن بشر القشـيري في الجواز إلى إسـبانيا حـتى يستعين بهم فـي قتال البـربر. وأثبت هؤلاء العرب كفاءتهم وفاعلتهم إذا لحقوا بجموع البربر ثلاث هزائم متوالية في شذونة وفي منطقـة قرطبـة وأخـيرًا قـرب طليطلة في مـعركـة وادي سليط (Guazalete) ومكنهم ذلك من المناداة بقائدهم بلج عاملا على الأندلس[1].

تقدم يوسف الفهري بحشوده قاصدًا مدينة إشبيلية وكان يتولاها من قبل الأمير عبد الرحمن الداخل أحد أقـاربه وهو عبد الملك بن عمر بن مروان ابن الحكم، بينما كان ولده عبد الله عمر يتـولى مدينة مورور. والأمير عبد الملك بن عـمر بن مـروان بن الحكم كـان قد فـر من بلاد الشـام خوفًـا من بطش العباسيين به، فمـر بمصر، ومضى إلى إسبانيا فأكرمه الأمـير عبد الرحمن بن معاوية، وولاه على مدينة إشبيلية. ويقـال أن عبد الملك بن عمر لما وجد عبد الرحمن الداخل يدعو لأبي جـعفر المنصور العباسي، أشار علـيه بقطع اسمه من الخطبة، وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني أمـية، فتردد عبد الرحمن في ذلك، فمازال به عـبد الملك حتى قطع الدعاء له وذلك أنه قـال له حين امتنع عن ذلك: إن لم تقطع الخطبـة لهم قـتلت نفسي، فـقطع عـبد الرحـمن بن

(1) محمود مكي، المرجع السابق، ص 66.

معاوية الخطبة للخليفة المنصور العباسي. وقد لعب عبد الملك دورًا هامًا في الدفاع عن الدولة الأموية في إسبانيا. أما مدينة مورور Moron de la Frontera فهي مدينة صغيرة من أعمال إشبيلية تقع إلى جنوب شرقي إشبيلية وعلى مسافة تبعد نحو ستين كيلو مترًا منها ونحو ستين ميلا من قرطبة. ويقول صاحب الروض المعطاران جبايتها على أيام الحكم بن هشام (الربضي) بلغت إحدى وعشرين ألف دينار.

لم يتردد يوسف الفهري في إحكام الحصار على مدينة إشبيلية، وفي نفس الوقت قرر الزحف إلى قرطبة قبل أن تصلها إمدادات من عرب الشام القادمين من الجنوب، إلا أنه فشل في تنفيذ خطته هذه، إذ بلغ الشاميون قرطبة بينما كان يوسف الفهري لا يزال في زحفه، وخرج الأمير عبد الرحمن ابن معاوية بتلك الحشود لقتال يوسف الفهري، بينما سار عبد الله عمر بجند مورور لفك الحصار عن أبيه في إشبيلية، وصمم الأب والابن على مهاجمة يوسف الفهري من الخلف، فلما علم الفهري بتحركات ابن معاوية من الجنوب، وعبد الملك بن عمر وابنه عبد الله عمر من الشمال، خشي أن يقع بين فكيهما فيطوقاه ويقطعا عليه الرجعة فحاول الإجهاز على كل جيش على حدة مبتدئًا الهجوم على الأضعف، وهو جيش عبد الملك وابنه عبد الله، وبدأت المعركة بنزول أحد موالي يوسف الفهري من البربر معروف بالنجدة والشجاعة والبأس فدعا إلى النزال والمبارزة، فتقاعس القوم ولم يبرز إليه أحد، فالتفت عبد الملك إلى ولده عبد الله وقال له: «هذا أول الشر ونحن في قلة. فانزل على عون الله». فتهيأ عبد الله للنزال، وعندئذ تقدم مولى حبشي لآل مروان بن الحكم يكنى بأبي البصري، فقال لعبد الله عمر. أي شيء تريد يا مولاي؟ فقال له: أريد النزول إلى هذا، قال له: أنا أكفيك ذلك

يا مولاي. فنزل أبو البصري إلى البربري مولى يوسف الفهري، وكانت السماء قد جادت بمطر قليل، فالتقتا وتجاولا ساعة، وكلاهما شجاع عظيم الجسم، ثم زلقت رجلا البربري، فسقط على الأرض، فأسرع إليه أبو البصري وهوى عليه بالسيف، فقطع رجليه ثم قتله، فكبر أصحاب المرواني، وحملوا على يوسف الفهري وأنصاره حملة رجل واحد، فدارت بينهما رحى معركة شديدة أبلى فيها كل فريق بلاءً عظيمًا، وكثر القتل في أصحاب يوسف الفهري، فهلك أكثر من معه، وانهزم وتفرق أصحابه عنه.

الخصومات العشائرية العربية في الشرق وصداها في إسبانيا:

تعتبر فترة الأربعين سنة - من مقتل عبد العزيز حتى تأسيس إمارة قرطبة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل - من أسوأ العهود في تاريخ إسبانيا المسلمة. وقبل فك طلاسم هذه الحقبة المظلمة، يتعين علينا إلقاء الضوء في إيجاز على حالة الخلافة الأموية في دمشق وخاصة فيما يتعلق بنفوذ العشائر العربية المتنافسة على قيادة الإمبراطورية الجديدة وما اعترى هذا النفوذ خلال الفترات المتعاقبة لخلفاء بني أمية، لأن صراع تلك العشائر في الشرق سيمتد أثره إلى شمال أفريقيا وستصطلي إسبانيا بناره التي اجتاحت لقرن كامل حتى تنطفئ جذوتها. يحفل القرن الثامن الميلادي بمظاهر الخصومة بين ممثلي الطائفتين العربيتين الكبيرتين: القيسيين والكلبيين. ولم تكن الخصومة بينهما وليدة الساعة بل إنها تضرب بجذورها في أعماق الماضي، وكانت موجودة في عهد الرسول وخلفائه الراشدين. وتتصل طائفة القيسيين (قيس عيلان) بفرع المضربين الذي يتفرع بدوره لعدة قبائل مثل ذبيان، كلاب، قصير. في زمن الرسول ﷺ كان القيسيون بدوًا رحلاً، يتنقلون بين شمال ووسط شبه الجزيرة العربية، من شاطئ البحر الأحمر حتى تخوم العراق،

وأتاحت الفتوحات الإسلامية لمعظمهم (وقد شاركوا فيها بفاعلية) ترك ديارهم غير الصالحة للسكنى في شبه جزيرة العرب والاستيطان في كل أراضي الشام لدرجة أنهم أصبحوا يمثلون أكثرية سكان المدن العربية في العراق مثل الكوفة والبصرة. وبعد انتقال مقر الخلافة في دمشق (إلى قلب البلد الذي اختاروه طواعية للهجرة) تصاعد دورهم السياسي والعسكري بشكل ملموس. أما الكلبيون فيتصلون بفرع قضاعة/ قحطان، ويسمون باليمنيين بالرغم من أن هجرتهم من اليمن السعيد كان قد مضى عليها أمد بعيد.

ومن قديم الزمان والخصومة متأصلة في أفراد كل عشيرة ولا يمكن أن تنمحي بموجب أي التزام. وأسباب تلك الخصومة لا ترجع فقط إلى اختلاف أصول هاتين الطائفتين بل إلى الشعور - اللاإرادي، لحد ما - بالسخط وعدم الارتياح الذي يحس به سكان المناطق الصحراوية القاحلة تجاه القادمين من الأراضي الخصبة. وهناك عامل آخر في غاية الأهمية برغم تأخره ويتمثل في الفضل الذي أنهم به الإسلام في بدايته على القيسيين، مرجئًا بذلك الكلبيين إلى مرتبة تالية. وفي كل الأحوال، فإن الخصومة القائمة بين القيسيين والكلبيين - أو بين المضريين واليمنيين بوجه عام - كانت في نمو مطرد خلال الفترة الأولى من تاريخ الخلافة الأموية. ولم يتورع الخلفاء الأمويين عن إذكاء نار الصراع بين الطائفتين دون التحيز لأي منهما. كان الأمويون يميلون تارة إلى القيسيين وإلى الكلبيين تارة أخرى طبقًا لما تمليه روابط المصاهرة - من جهة نسائهم - بكلا الفريقين. فقد مال معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد إلى اليمنيين لأن أم يزيد كانت منهم. ولهذا السبب حاول القيسيون تفجير سلطة معاوية الثاني ومروان الأول عندما ساندوا عبد الله بن الزبير الذي تجرع - عام 684 (65 هـ)، بالقرب من دمشق - كأس الهزيمة من القوات الكلبية الموالية لمروان الأول. ومنذ تلك الواقعة تأججت نار الكراهية في قلوب القيسيين،

وأصبح كل فريق يتربص الدوائر بالآخر. في تبادل مستمر للانتصارات والهزائم. حاول الخليفة عبد الملك نزع فتيل الصراع باستمالة القيسيين إلى بلاطه وبالزواج منهم، كما انتهج في نفس الوقت - وبإيعاز من بعض أمراء بني أمية - سياسة تخدم تطلعاتهم. لكن محاولاته ضاعت سدى لأن الوضع الجديد للقيسيين أثار غضب اليمنيين فدبروا قتل يزيد الثاني وفرضوا تنصيب يزيد الثالث خلفًا له. ولما جاء مروان الثاني (آخر خلفاء بني أمية في الشرق) حاول التقرب من الحجازيين القيسيين، ومضى في تلك السياسة المخالفة لنهج سلفه حتى أطاح به العباسيون. ومع هذا، لم تضع النهاية المأساوية لخلافة دمشق الأموية حدًا للصراع بين العشيرتين الكبيرتين، وسيظل المؤرخون العرب يتحدثون عن الصدامات الدامية بينهما حتى نهاية القرن التاسع الميلادي. ذكرنا من قبل أن موسى بن نصير عندما قدم إلى إسبانيا - عام 712 (93 هـ) - كان بصحبته جمع غفير من المقاتلين العرب. وما لم نذكره هو أن هؤلاء كانوا بين قيسيين حجازيين ويمنيين، ومن البديهي أن تنتقل معهم ثاراتهم القديمة إلى إسبانيا مثلما رافقتهم في الأمس القريب إلى شمال أفريقيا والمغرب. وهذا ما حدث بالفعل، إذ استجاب كل فريق لداعي العصبية القديم دون اعتبار للأبعاد السياسية المترتبة على الصراع. ما زاد الطين بلة على أرض إسبانيا نشوب صدام آخر بين العرب والبربر المغاربة بسبب تعالي العرب عليهم. ولما كانت طبيعة البربري لا تقبل الاستكانة والذل فقد تحزب البربر ضد العرب المتغطرسين. إذا أخذنا في الحسبان هذا الوضع المتفجر سهل علينا فهم الصدامات الدامية التي تفشت - بين القيسيين واليمنيين من جهة، وبين العرب والبربر من جهة أخرى - طيلة فترة الحكام السابقين على تأسيس إمارة قرطبة وامتدت إلى بدايتها[1].

---

(1) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص 60.

سياسة التخلص من الأعداء بالغدر والحيلة أو بالعنف والفظاعة هي التي سيتبعها عبد الرحمن حيث لا يجدي الترغيب والترهيب. ولن يكن طوال عهده، أي خلال 30 سنة من مناهضة خصومه، معرضًا شخصه للأخطاء والتضحية، ولن يتردد في توجيه الضربات دون شفقة أو رحمة إلى أولئك الذين يخونون عهده، وستسيطر على كل أعماله روح الاستبداد التي لا تعرف التساهل الذي قد يستغله خصومه ضده.

والحقيقة أنه كان من الصعب إرضاء كل العناصر من أصحاب الأغراض والأهواء المختلفة. فهناك الفهريون من أتباع الوالي القديم وهؤلاء فقدوا نفوذهم وسلطانهم وكان يراودهم الأمل دائمًا في استعادتها. ثم هناك اليمنيون وهؤلاء هم الذين نصروا الأموي لا حبًا فيه ولكن كرهًا في العصبية المناهضة لهم - عصبية القيسية - ورغبة في التأثر لهزيمة شقندة وكان من الطبيعي أن يفكروا في فرض الوصاية على عبد الرحمن أو اختيار أمير منهم. ولكن من حسن حظ الأمير أن خصومه الذين رفعوا راية العصيان لأسباب شخصية أو إرضاء لأهواء ونزعات خاصة لم يعرفوا كيف يتحدون جميعًا ضده. وهكذا عرف كيف يتخلص منهم بفضل مواليه وبعض الزعماء المخلصين لهم ثم بفضل البربر الذين جلبهم من المغرب. اندلعت أول هذه الثورات هذه الثورات بطليطلة بعد ثلاث سنوات من موت يوسف الفهري (145 هـ)، ولن تقمع إلا بعد سنتين 147 هـ (764 م). قام بهذه الثورة القائد الفهري هشام بن عروة الذي استقل بحكم طليطلة وظل يسود عاصمة القوط إلى أن سار إليه جيش أموي يقوده بدر وتمام بن علقمة. ولم يستدع الأمر قيام عمليات عسكرية إذ ضاق أهل طليطلة ذرعًا بطول الصراع وفاوضوا القائدين اللذين أقر النظام وعادا إلى قرطبة ومعهما زعماء الثوار الذين شهر بهم في شوارع المدينة فحلقت رؤوسهم وذقونهم وألبسوا ملا مضحكة ووضعوا في سلال

تحملها الحمير. ولن تثور طليطلة (التي عرفت بعصيانها المستمر والتي سببت لقرطبة كثيرًا من المتاعب (حتى القرن العاشر) إلا في أواخر عهد عبد الرحمن. سيشعل لهيب الفتنة فيها آخر أبناء يوسف الفهري وهو أبو الأسود محمد الأعمى الذي سينهزم أمام عبد الرحمن نفسه في ربيع الأول 169 هـ (سبتمبر 785 م).

المنصورواليمنية:

ومن بين المؤامرات الخطيرة التي اشتركت فيها اليمنية تلك الثورة التي قام بها الزعيم العربي العلاء بن مغيث، وذلك لاشتراك بعض الدعاة العباسيين الذين أرسلهم الخليفة بالمشرق. واندلعت نيران هذه الثورة 146 هـ (763 م) في منطقة باجة (Beja) من جنوب البرتغال الحالية نزل العلاء ورفع رايات العباسيين السوداء. أرسل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور هذا الرجل إلى الأندلس وأمده بالأموال ووعده بولاية الجزيرة إذا تمكن من خلع المغتصب الأموي. وكان مجرد نبأ إعلان أن العلاء يعمل لحساب الأسرة الخلافية الجديدة في المشرق ورفع أعلامها السود كافيًا لأن يجمع حوله كثيرًا من عرب إسبانيا من كل العناصر من «بلديون» و«شاميون» ممن كانوا يتحينون الفرص لعمل الثورة والنهب والسلب أو ممن كانوا يبحثون عن شفاء غلة أحقادهم القديمة. وانضم فعلا إلى الحركة كثير من اليمنيين بوجه خاص وكذلك الفهريين الموجودين بهذه المنطقة. واستشعر عبد الرحمن ذلك الخطر الداهم الذي لم يسبق له مثيل، والذي تمثل في وجود داعية عباس في إسبانيا. فاختار عددًا من جنده المخلصين وذهب للاعتصام بقلعة قرمونة غير بعيد من شرق إشبيلية. وحاصره الداعية العباسي في القلعة البعيدة المنال مدة شهرين. وعندما علم عبد الرحمن بضيق أصحاب العلاء بالحصار وذهاب بعضهم إلى

بلادهم قرر توجيه ضربة جريئة على المحاصرين انتهت بتشتيتهم وبعثرة شملهم. وقتل العلاء نفسه وكثير من قواده. ولكي يزيل من ذهن المنصور محاولة انتزاع الأندلس منه أمر فقطعت رؤوسهم في ميدان المعركة، وأرسلت إلى قرطبة حيث حنطت ووضعت في كيس مع الرعاية السوداء التي حملها الداعية، وكذلك بطاقة تقليدية (توليته)، وقصة هزيمته. وعهد بكل ذلك إلى تاجر كان عليه أن يقوم بأعمال تجارية في القيروان وطلب إليه أن يضع ذلك الحمل الفظيع ليلا في سوق القيروان عاصمة المغرب العربي. ولا شك في أنه كان لذلك العمل أثر مزعج، فعندما علم الخليفة المنصور بذلك حمد الله أن جعل بينه وبين هذا الشيطان (عبد الرحمن) بحراً.

أراد عبد الرحمن بأعمال العنف هذه أن يحكم بالإرهاب ولكن العرب لم يكونوا ليجزعوا بسهولة. ففي 149 هـ (766 م) قام اليمنيون بفتنة أخرى، في منطقة لبلة (Nieble)، دعاهم إليها من يسعى سعيد المطري (الذي طالب بثأر العلاء ولكن دون أن يشترك فيها العباسيون اشتراكًا مباشراً حسب ما يظهر – من الجائز أن يحاول الثوار إعطاء ثوراتهم صبغة شرعية عن طريق المناداة بالخليفة الشرعي). تمكن هذا الرجل من الاستيلاء على إشبيلية ثم ذهب وتحصن في قلعة مجاورة (هي دغواقة (Wlcala de Guadiara) ولكن عبد الرحمن ذهب لحصاره. وأظهر المطري جرأة كبيرة ولكنه دفع حياته ثمنًا لها واستسلمت قواته بعد مقاومة عنيدة. بعد ذلك بقليل حاول اليمنيون زلزلة نير عبد الرحمن الذي كان قد رأى التخلص من أحد زعمائهم الأقوياء وهو أبو الصباح يحيى اليحصبي، وذلك بقتله في حضرته، في نفس العام الذي ثار فيه المطري، وانتظرت اليمنية فرصة مناسبة للثأر لمقتله. وبينما كان عبد الرحمن يواجه ثورة البربر (شقيا بن عبد الواحد المكناسي) قامت اليمنية تحت قيادة عبد الغفار ابن عم أبي الصباح وزعيم آخر هو حياة بن ملامس،

وحاولوا مفاجأة قرطبة وكان عبد الرحمن قد خرج عنها ولكن تمكن عبد الرحمن من تشتيتهم بفضل ابن عمه عبد الملك ابن عمر. وطارد الزعيمين اليمنين حتى شمال الوادي الكبير حيث هزمهم - بفضل استراتيجية ناجحة هي شراء البربر - هزيمة دامية على ضفة أحد فروع الوادي الكبير (وادي قيس - حاليًا Bembezar) 157 هـ (774 م).

ثورة شقيا بن عبد الواحد البربري

نشبت ثورة بربرية خطيرة في شمال شرق إسبانيا في عام 151 هـ (768م) زعيمها رجل من قبيلة مكناسة البربرية يدعى شقيا بن عبد الواحد، كان يعمل علمًا للصبيان، وكانت أمه تسمى بفاطمة، فادعى أنه فاطمي من سلالة النبي ﷺ. وتسمى بعبد الله بن محمد ودعا الناس إلى اعتناق الدعوة العلوية التي كان يدعو لها كي يخلصهم من حكم الدولة الأموية في إسبانيا ثم سار إلى شنتبرية، فالتف حوله كثير من البربر وعظم أمره، فسار إليه الأمير عبد الرحمن بن معاوية على رأس جيش كثيف، فلم يستطع ابن معاوية قتاله والإيقاع به، إذ كان شقيا يتبع خطة عسكرية محكمة، فهو يخرج إذا أمن وعلم إن لا خوف عليه من الخروج، أما إذا أدركه خطر ما فإنه يعمد إلى الهروب دون أن يقدم على مواجهة الجيش الأموي، ولذلك عاد الأمير عبد الرحمن بن معاوية إلى قرطبة وعهد إلى والي طليطلة جيب بن عبد الملك بقمع ثورة الفاطمي، فاستعمل حبيب على شنتبرية سليمان بن عثمان بن مروان بن إبان بن عثمان بن عفان، وأسند إليه مهمة الدفاع عنها ضد هجمات الفاطمي وأمره بالقبض عليه، ولكن الفاطمي حينما شعر أن قواته تفوق إمكانات والي شنتبرية وانحدر من أعالي الجبال بجموعه إلى شنتبرية واستولى عليها وقتل واليها سليمان بن عثمان، واشتد أمره وطار ذكره وغلب

على ناحيـة قورية، ومدلين وماردة. وهو حـبيب بن عبد الملك بن عـمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان. وقد دخل إسبـانيا قبل الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وكانت له مكانة عظيمة في قلب الأمـير عبد الرحمن لم تكن لأحد من أهل بيته: وقد ولاه طليطلة وأعمالها، وتوفى في أيام الأمير عبد الرحمن فشهد جنازته وصلى عليه، وهو القائل يخاطبـه مغريًا لأبي الصباح اليحصبي زعيم اليمنية.

يا ابن الخـلائف إنـي ناصح لكم	في قـتل ذي احن يرتاد لـلنقم
لا يفلتـنك فـيـأتينا ببـائقـة	واشـدد يديك به تبرأ من السـقم
جلله غضبًا من الهندي ذا شطب	أن الصـرامـة فـعلـة الكرم

قورية مدينة قديمة عرفت قبل الفتح الإسلامي باسم Caurium وهي من فتوح موسى بن نصـير، وقد أصبحت بعد ذلك من كبـار معاقل الجوف وإن كانت دائمًا مـعقلا للثوار والخـارجين على الحكومة المركزية في إسبـانيا، وقد اسـتولى عليـها أردون الأول ملك ليـون 246 هـ (860 م) ولكن المسلمين لم يلبثوا أن استردوها ومهد الخليفة عبد الرحمن الناصر إقليمها وأخلاه من الثوار وتابعه في ذلك المنصـور محمد بـن أبي عامر. وفي عصـر الطوائف صارت قورية من توابع إمارة بني الأفطس في بطليوس إلى أن استولى عليها ألفونسو السادس قبل اسـتيلائه على طليطلة 478 هـ (1085 م). ولكن المرابطين عادوا واستـردوها، وفي أيام الموحدين أصـبحت مـعقلا إسـلاميًا ونقـطة دفاع من جديد. ولـم تسقط في أيدي ألفـونسو الثـامن ملك قشـتالة إلا حـوالي عام 597هـ (1200 م). حصن مـدلين، أحد حصون مـاردة المنيعة، وقـد أسست مدلين فيمـا يقرب من عام 80 ق. م على يد القائد الرومانـي القنصل كينتو سيسيليو مـيتيليو Quinto Cecilio Metello. وكانت في البداية معسكرًا حربيًا

ثم تحولت إلى مركز عمراني رئيسي، وارتفعت بعد ذلك بحيث أصبحت مستعمرة رومانية. وقد سقط هذا الحصن في أيدي فرسان القنطرة في 623 هـ (1234 م). وفي العام التالي (152 هـ/ 769 م) سار الأمير عبد الرحمن بنفسه لقتال الفاطمي، ولكنه - كعادته - امتنع بالجبال، فلم يجد الأمير سبيلا إلى مطاردته فارتد إلى قرطبة، ثم أرسل إلى قتاله في العام التالي (153 هـ/ 770م) مولاه بدرًا، فهرب الفاطمي كعادته إلى المفاوز والجبال. وفي عام 154هـ/ 771 م غزاه الأمير عبد الرحمن بنفسه، فلم يفلح أيضًا في حمله على مغادرة مواقعه. ثم بعث إليه في العام التالي (155 هـ/ 772 م) مولاه عبيد الله بن عثمان، فسار الجيش والتقى بالثائر البربري، ولكن الأخير استطاع بمواهب من مكر ودهاء وخداع أن يفسد جيش أبي عثمان وأن يستميل جنده البربر إلى صفوفه، فاضطر عبيد الله بن عثمان إلى الفرار، فغنم الفاطمي ما في عسكره من مؤن وعتاد وسلاح، وقتل جماعة كبيرة من قواده وكذلك جماعة من بني أمية كانوا في عسكر ابن عثمان. ثم سار الفاطمي - عقب انتصاره على جيش عبيد الله بن عثمان - إلى حصن الهواريين أو الهوازيين وبه عامل للأمير عبد الرحمن، فاستدرج الفاطمي هذا العامل وحمله على الخروج من حصنه وعندئذ هاجمه وقتله، وغنم كل ما كان لديه من خيل وعدة وسلاح. وفي نفس العام (155 هـ/ 772 م) خرج الأمير عبد الرحمن بن معاوية على رأس جيش كبير ووصل إلى شنتبرية منطقة نفوذ الثائر البربري، فعمد الثائر البربري إلى الفرار - كعادته - من وجه الجيش الأموي ولم يتهيأ للأمير الاشتباك معه والنيل منه والإيقاع به، فلجأ عبد الرحمن بن معاوية إلى اصطناع طريقة جديدة وأسلوب مبتكر للقضاء على هذه الثورة، فعمل على تقريب أحد زعماء البربر وهو هلال المديوني فعينه واليًا على المناطق التي يسيطر عليها الثائر البربري، وكتب الأمير له عهدًا على

قومه وأقره على موضعه، وكان هلال المديوني هذا أحد زعماء البربر في شرق الأندلس، وكلفه أمر القضاء على الفاطمي ومتابعته، فنجحت هذه الخطة في تخلي كثير من البربر عن الثائر البربري وانضمامهم إلى هلال المديوني باعتباره صاحب سلطة شرعية من قبل حكومة قرطبة ودب الخلاف والشقاق بين صفوف البربر الثائرين، فاضطر الثائر البربري - لا سيما بعد أن انفض عنه كثير من أنصاره - أن ينسحب من شنتبرية إلى الشمال ليعتصم بحصن شبطران الحصين وفي العام التالي (156 هـ/ 772 - 773 م). خرج الأمير عبد الرحمن بن معاوية بنفسه لقتال الثائر البربري، فحاصره بحصن شبطران الحصين وضيق عليه، ولكنه اضطر للعودة مسرعًا إلى قرطبة حينما أتاه الخبر بعصيان أهل إشبيلية وثورة حيوة بن ملامس والثائرين معه، فرجع إلى حاضرته، مرجئًا القضاء على الفاطمي إلى حين القضاء على ثورة اليمنية.

وفي (158 هـ/ 774 م) خرج الأمير عبد الرحمن بن معاوية مرة أخرى لقتال الثائر البربري بجيش كبير العدد، كثير العدة، فسار إلى أن وصل قورية وقد شدد على البربر من أهلها الذين سبق إن غدروا بأبي زعبل الصدفوري عامله على قورية وأسلموه إلى شقيا البربري الذي قام بقتله، فقتل الأمير عبد الرحمن منهم كثيرًا ولا سيما من كبار رجالهم، واتبع الثائر، ففر بجموعه، وتتبعهم الأمير عبد الرحمن حتى جاوز قصر الأبيض، ولم يقف للثائر على أثر فعاد إلى قرطبة. وفي العام التالي (159 هـ/ 775 م) سير الأمير عبد الرحمن جيشًا آخر لقتال الثائر البربري، ولكنه - كعادته - اعتصم بمفاوز الجبال، فعاد الجيش إلى قرطبة. وفي 160 هـ (775 - 776 م) جهز الأمير عبد الرحمن جيشًا قويًا أسند قيادته إلى قائدين مشهورين بالشجاعة والإقدام هما أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان وتمام بن علقمة، وسيرهما لقتال الثائر

الفاطمي، فحاصراه شهوراً عديدة وهو في حصن شبطران، ثم أرسلا إليه رسولا يدعى وجيهًا الغساني وهو ابن أخت عبيد الله بن عثمان، ليفاوض الفاطمي في أمر استسلامه، ولكن الفاطمي استطاع أن يدعو وجيهًا الغساني وأن يعرض عليه دعوته، فاقتنع بدعوته وآمن بها، فانضم إليه وأقام عنده، وأصبح من أنصاره ومن أكبر أعوانه، ولذا لم يجد عبيد الله بن عثمان وتمام بن علقمة بدًا من قتال الفاطمي، ودارت بين الطرفين معارك عنيفة، ولكن الفاطمي استطاع أن يتغلب على جيش الإمارة الأموية، الذي اضطر للعودة إلى قرطبة، دون أن يوفق في القضاء على الفاطمي، بينما اتجه الفاطمي إلى شنتبرية ونزل بقرية من قراها يقال لها قرية العيون، وكانت نهايته بها، إذ ائتمر به اثنان من أصحابه، فقتلاه، واحتزا رأسه وتوجها إلى عبد الرحمن بن معاوية ومعهما رأس الثائر البربري، ويذكر صاحب أخبار مجموعة أن القائد الأموي وجيهًا الغساني، ظل مخلصًا للثائر الفاطمي حتى بعد قتله، إذ هرب إلى جبال البيرة وما زال يقاتل جيوش الأمير عبد الرحمن الداخل بشجاعة واستبسال حتى قتل. كانت البيرة ELVIRA من كبريات حواضر جنوب شرق إسبانيا وأصل اسمها أيبيري قديم مركب من ili - Berri أي المدينة الجديدة، وبها نزل جند دمشق حينما فتح العرب إسبانيا، ثم خرجت في الفتنة القرطبية وانتقلت عاصمة إقليمها إلى غرناطة، وأصبحت البيرة تابعة لها، وكانت أطلالها تقع على مسافة نحو كيلو ترين إلى الشمال الغربي من غرناطة.

ويرى الدكتور محمود علي مكي أن ثورة شقيا البربري هي أول الثورات البربرية الشيعية في بلاد إسبانيا، كما أنها أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الغرب الإسلامي إذ أنها سبقت تكوين دولة الأدارسة العلوية بنحو عشرين سنة، ويضيف بأن ثورة شقيا البربري كشفت عما يكمن للدعوات الشيعية أن تصيبه من النجاح في أواسط القبائل البربرية.

دور البربر في ثورة عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي

فكر العباسيون في عصر الخليفة المهدي (158 - 169 هـ/ 775 - 785م) في استعادة إسبانيا وجعلها ولاية عباسية تابعة لهم، وقد واتتهم الفرصة بوجود شخصية ثائرة طموحة تتمثل في عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي ولم تكن من الصقالبة ولا صلة له بهم وإنما سمي بالصقلبي لطول قامته وشعره الأشقر وزرقة عينيه، وقد استطاع العباسيون تجنيده لخدمتهم ورفع شعاراتهم في إسبانيا الإسلامية.

عبر عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي من تونس إلى الأندلس ونزل بساحل تدمير، وأخذ يدعو الناس للدخول في طاعة العباسيين والدعاء للخليفة العباسي المهدي، ودعا لقتال عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ورفع الرايات السوداء شعار بني العباس، فأجابه الكثير من البربر، وانضموا تحت لوائه واستطاع أن يكوِّن منهم جيشًا كبيرًا وذلك 163 هـ/ 779 م. تدمير، مدينة في جنوب شرق إسبانيا نسبة إلى تيودومير بن عبدوش حاكم هذه المنطقة أيام الفتح العربي لإسبانيا وهو الذي عقد معاهدة مع عبد العزيز بن موسى بن نصير احتفظ فيها بشيء من الاستقلال بهذه الناحية الشرقية. وفي عهد عبد الرحمن الداخل تحولت هذه المنطقة إلى كورة عادية قاعدتها أو ريولة. وفي 216 هـ/ 831 م اختطت مدينة مرسية أيام عبد الرحمن الأوسط على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ، ولم تلبث مرسية بعد ذلك أن صارت قاعدة لكورة تدمير ثم سميت الكورة كلها باسمها. سليمان ابن يقظان الأعرابي كان حاكمًا على مدينة برشلونة وجرندة في الثغر الأعلى ولما خرج بدر مولى عبد الرحمن الداخل 150 هـ/ 767 م إلى منطقة الثغر الأعلى ليتفقد أحوال الثغر أخذ كل من اشتبه بولائه لحكومة قرطبة ومنهم

سليمان الأعرابي حيث نقله إلى قرطبة وفرضت عليه الإقامة فيها، ويعد أن قضى عبد الرحمن الداخل على ثورة اليمنية بزعامة حيوة بن ملامس، وبعد هذه المأساة التي حلت باليمنية حرض الشاعر المشهر بن هلال القضاعي سليمان الأعرابي، ودعاه إلى أخذ ثأر اليمنية، فخرج الأعرابي من قرطبة وسار إلى سرقسطة متمردًا. وقد بدأ سليمان الأعرابي تمرده على الأمير عبد الرحمن الداخل (157 هـ/ 774 م) بالتعاون مع الحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة، فأرسل الداخل إلى سرقسطة جيشًا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي، ولكن هذا الجيش تعرض للهزيمة وأسر القائد ثعلبة وذلك (158 هـ/ 775 م). ولم يكتف سليمان الأعرابي وحليفه الحسين بن يحيى الأنصاري بذلك بل أرسلا للإمبراطور شارلمان (160 هـ/ 777 م). طالبين منه الزحف إلى الأندلس، ووعده بتسليم برشلونة وسرقسطة. ولم يكن شارلمان يزهد في السيطرة على الأندلس، إذ كان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس، فلبّى دعوة العصاة، ووافق على عروضهم وبعث إليه سليمان الأعرابي بأسيره ثعلبة بن عبيد رمزًا للثقة والتحالف، ثم عبر شارلمان بجيوشه إلى إسبانيا في (161 هـ/ 778 م) ولكن تحطمت أحلامه وآماله عند أسوار مدينة سرقسطة، ورجع خائبًا إلى بلاده وتعرض لهجوم المسلمين والبشكنس الذين دمروا مؤخرة جيشه، وكان شارلمان عند انسحابه قد أرغم سليمان الأعرابي على التراجع معه لعجزه عن تحقيق ما وعده به بإدخاله مدينة سرقسطة، ثم أطلق سراحه فانزوى في مدينة برشلونة. كتب عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي إلى سليمان بن يقظان الأعرابي - مستغلا استياءه بعد فشل حملة شارلمان - يدعوه لنصرته، فلم يجبه سليمان إلى ذلك. مما أدى إلى خروج عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي بحشوده من البربر متوجهًا إلى سليمان الأعرابي، وعند مشارف برشلونة وقعت بينهما معركة كان النصر فيها لسليمان الأعرابي والهزيمة للصقلبي،

فعاد الأخير إلى تدمير واستغل عبد الرحمن الداخل هذا الوضع فسارع إلى تدمير بجيش كبير، فهرب الصقلبي إلى مدينة بلنسية للاحتماء بها وبجبالها المنيعة. وتوجه عبد الرحمن الداخل إلى ساحل تدمر وكانت سفن الصقلبي راسية فيه، فأمر بإحراقها. وفي نفس الوقت لجأ الداخل إلى سلاح المال، فأعلن بذل ألف دينار لمن يأتيه برأس الصقلبي، فاستطاع رجل من البربر يسمى مشكار أن يتقرب من الصقلبي ويصبح من أصحابه، وأظهر له النصيحة، فاطمأن إليه وصار من ثقاته، فتمكن منه مشكار البربري، وقتله، وأتى برأسه إلى عبد الرحمن الداخل.

بلنسية Valencia مدينة كبيرة في شرق الأندلس تقع على بعد أربعة كيلو مترات من ساحل البحر المتوسط ولها ميناء عليه تسمى جراو Grao ومنطقة بلنسية مشهورة بخصبها ويرويها النهر الأبيض أحد فروع نهر توريا المسمى بالنهر الأحمر. وقد اشتهرت بلنسية بزراعة الأرض بصفة خاصة وفي ذلك يقول العذري: ويزرع فيها الأرز وهو ينجب فيها، ومنها يحمل إلى جميع بلاد الأندلس وقد فتحها العرب (95 هـ/ 714 م) وبقيت في أيديهم إلى أن تعرضت لغزو القائد القشتالي المعروف بالسيد القنبيطور أي المحارب El - Cid Campeador الذي كتب حوله الإسبان القصص والملاحم El - Poema del Cid وتغنوا بقوته وشجاعته بل قرنوا اسمه بمدينة بلنسية فقالوا بلنسية السيد Valencia del Cid على اعتبار أنها كانت مقراً لحكمه حتى وفاته (478 - 492 هـ/ 1085 - 1099 م)، ولقد استمرت زوجته Jimena خيمنا تحكم بلنسية بعد وفاة السيد مدة ثلاث سنوات ثم استردها المسلمون بقيادة القائد المرابطي مزدلي (495 هـ/ 1102 م) فأعاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين تجديدها وردها أحسن مما كانت. ثم تأسست بها بعد ذلك إمارة بني مردنيش إلى أن سقطت نهائيًا في يد ملك أراجون خايمي الأول الملقب بالفاتح

(636هـ/ 1238 م). وفي هذه الفترة اشتعلت عدة ثورات بربرية في مواضع مختلفة من الأندلس، ففي (162 هـ/ 778 م) سير عبد الرحمن الداخل جيشًا بقيادة مولاه بدر لقتال إبراهيم بن شجرة البرنسي، وكان قد عصى عليه فقتله. كما ثار البربر بقيادة بحرة بن البرانس فبعث الأمير عبد الرحمن الداخل إليه مولاه بدر فقتله، وشتت جموع البربر. وفي عام (164هـ/ 780م) ثارت فتنة بين بربر بلنسية وبربر شنتبرية، وجرت بينهما معارك شديدة قتل فيها الكثير من الجانبين وفي عام (170 هـ/ 786 م) خرج الأمير عبد الرحمن الداخل لقتال محمد بن يوسف الفهري، فلما وصل الأمير إلى قورية، فر الفهري، بينما أدركت قوات الأمير عبد الرحمن الكثير من أنصار الفهري، كما وقع الأمير ببربر نفزة: «فأذلهم وأذهب عاديتهم ومن المرجح أن بربرنفزة كانوا يسكنون قورية وكانوا من أشد المؤيدين والمخلصين لمحمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري[1].

الثورات وخلفاء عبد الرحمن الداخل

مات عبد الرحمن الداخل في 25 من ربيع الثاني (172 هـ/ 30 سبتمبر 788 م) وله من العمر أقل من 60 عامًا. ودفن في قبر (روضة) بالقصر الأميري. ويمدح الكتاب العرب جميعًا شخص ذلك الذي أقام الأسرة الأموية بالمغرب الإسلامي. ذلك الأمير الشامي الذي يوصف بطول القامة ولبس البياض - لون الأسرة - والشعر الأصفر الذي يغطي جبهته في حلقات ودوائر، والوجه الصبوح الذي لا يشينه إلا فقدان إحدى عينيه، والذي عرف بأنه شاعر وخطيب فصيح، ظل طوال 30 عامًا يصارع الصعاب المختلطة

---

(1) د. حمدي عبد المنعم محمد حسين، ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية، ص 26.

وتصارعه دون أن يتطرق إليه اليأس أبدًا. وترك لخليفته مملكة لم تؤثر فيها الهجمات النصرانية، والتي كان قد اضطر إلى الدفاع عنها رعاياه أنفسهم. ويمكن اعتبار عبد الرحمن الداخل على الجملة كواحد من أعظم أمراء الأسرة الأموية التي دانت بإحيائها من جديد، وربما أن عبد الرحمن الداخل كان أعظمهم جميعًا لو لم يأت عبد الرحمن الثاني الأوسط وعبد الرحمن الثالث الناصر في القرنين التاسع والعاشر وخاصة الثاني منهما ليكسفا اسم سميهما بعض الشيء - كما يقول بروفنسال. ونحن نريد أن نعرف موقف خلفاء عبد الرحمن من هذه السياسة الداخلية التي أشرنا إليها هل كانوا أمناء على هذا التراث الذي تركه أبوهم أو خرجوا عليه؟.

الحقيقة أن خلفاء عبد الرحمن كان رائدهم في سياستهم الداخلية تحقيق الوحدة القّومية لأنها السياج الذي يصون حضارة الأندلس والذي يصعد غارات العدو، هذا مع المحافظة على سلطان الأمويين ومكاسبهم. كان تحقيق هذه الأهداف يتوقف على شخصية الأمراء وعلى قدراتهم فإن بناء الدولة يتوقف على قوة الأمير الحاكم. على هذا الأساس نستطيع أن نقسم الفترة الواقعة بين عبد الرحمن الأول وقيام الخلافة في عصر عبد الرحمن الناصر إلى عهدين، عهد قوة ويشمل حكم هشام والحكم وعبد الرحمن الأوسط؛ هؤلاء الأمراء الذين تنوعت شخصياتهم واختلفت مواهبهم. كان هشام تقيًا منصرفًا للعلم حتى لقبوه بالرضى وكان الحكم بن هشام أمويًا قرشيًا البأس (قوي الشكيمة)، على حين كان عبد الرحمن الأوسط أميل إلى الهدوء والدعة، وكان ثلاثتهم من أعظم الشخصيات التي شهدها تاريخ إسبانيا الإسلامية خاصة وتاريخ المسلمين عامة. أما العهد الثاني الذي يقع بين عبد الرحمن الأوسط حتى ظهور عبد الرحمن الناصر فهو العهد الذي ضعفت فيه الإمارة وتفككت، ولم يشهد أمراء لهم مثل ما للأمراء الأوائل من القدرة

والكفاية. كانت السياسة الداخلية لأمراء العهد الأول هي تطبيق (دقيق) لأركان سياسية عبد الرحمن الأول من حرص على الوحدة القومية بنفس القوة التي رأيناها في عهد عبد الرحمن كان نوع المشاكل التي واجهوها هي نفس المشاكل التقليدية التي واجهها عبد الرحمن وكانت حلولهم لها أو موقفهم منها لا يختلف عن موقف عبد الرحمن، هذه المشاكل هي موقف الدولة من الأعداء التقليديين: العرب البربر.

العرب:

لم يكف العرب اليمانية أو القيسية الحجازية من الثورات طوال هذا العصر تحدوهم آمالهم التقليدية في الغلبة والسيادة وإخضاع الأمويين لنفوذهم وسلطانهم، وكانت قوة العرب تظهر على السطح سافرة في بعض الأحيان أو مستقرة في بعض الأحيان الأخرى، مستترة خلف الخارجين من البيت الأموي نفسه من أبناء عبد الرحمن أمثال سلمان أو عبد الله أو متحالفة مع حركات البربر أو الموالي أو المستعربين. أطلت اليمانية برأسها بعد وفاة عبد الرحمن الأول مباشرة وانتشرت ثوراتهم في برشلونة وسرقسطة من الشوار بعد أن أخضعهم لسلطان الإمارة عام 160 هـ. وتجددت ثورات العرب في عهد الحكم عام 181 هـ في نفس المنطقة تقريبًا، منطقة سرقسطة والثغر الأعلى (وكان أعمامه يؤججون الثورة ويدفعون العرب إلى الخروج ولم يكن بطش الحكم بهؤلاء الثوار أقل من بطش أبيه بهم. ولم تهدأ فتنة العرب في عهد الحكم فقد أطلت برأسها في عهد عبد الرحمن الأوسط، وانطلقت الفتنة العربية في تدمير، إذ وقع الخلاف بين الحجازية واليمانية، وقامت المعارك بينها وقتل كثيرون من الفريقين. وبعث عبد الرحمن إليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله فلم ينجح في القضاء على هؤلاء الثوار العرب الذين استمروا

يتحدون سلطان قرطبة، حتى هدأت فتنتهم عام 213 هـ، وكان موالى الأمويين ورجالهم الذين اصطنعوهم عدتهم في هذا النضال المر من أجل تثبيت النفوذ والسلطان.

البربر:

ولم يكن من المعقول أن تستأصل من البلاد المشكلة العربية نهائيًا، وكان الذي حدث أن الأمراء الأمويين كانوا أقوى من العرب فخفت صوتهم واستقرت نواياهم لتظهر سافرة في عهد الضعف الذي منيت به الإمارة بعد عبد الرحمن الأوسط. وواجه أمراء هذا العصر مشكلة العرب العاربة البربر وذاقوا منهم مثل ما ذاقوه من العرب، وكان البربر يغلب نفوذهم على المناطق الغربية والشمالية، ولم يتركوا فرصة إلا وانتهزوها لنفث أحقادهم ومناوأة الإمارة الأموية، وكانوا في معظم الأحيان يؤلبون المولدين من أهل البلاد أو المعاهدين من النصارى. وقد أطلت الفتنة البربرية (برأسها) في عهد الحكم الأول حينما استطاع عمه سليمان أن يحشد البربر لتأييد حقه في العرش وسار بهم نحو قرطبة ليلقى الهزيمة النكراء قرب هذه المدينة 183 هـ. وظل الحكم يتابع هذه الثورات بالقوة والبطش فهدأت في عهده حينًا لتظهر مرة أخرى في عهد عبد الرحمن الذي لم يكن أقل حرصًا على القضاء عليهم من أسلافه، وستظل المشكلة البربرية كامنة طوال عهد عبد الرحمن لتظهر في عصر الفتنة والضعف. وقد استجدت في أيام هؤلاء الأمراء مشاكل داخلية من طراز جديد لم يكن مألوفًا من قبل، جاءت نتيجة لأخطاء عبد الرحمن، ثم نتيجة لتطور الحياة الإسلامية في البلاد فقد ظهرت مشكلة المولدين ظهورًا واضحًا في هذا العهد الأول عهد القوة في تاريخ الإمارة.

المولدون:

وكان سبب ظهور قوة المولدين يرجع إلى اتجاه أمراء بني أمية إلى تدعيم سلطانهم عن طريق الاعتماد على العرب، وقد أسرف خلفاء عبد الرحمن في اصطناع العرب، الأمر الذي أحس معه المولـدون بأنهم مضيعون في دولة هم أصحابها الحقيقون.

وكانت حقـوقهم تهدر على (مرور الأيام)، في الـوقت الذي زادت فيه أعدادهم باطـراد الدخول في الإسلام الذي مـضى سريعًـا نحو الانتـشار في عصر الإمارة وازدادت أعداد المسلمين الجدد في الريف وكانت أشد ظهورًا في المدن الكبرى مثل قـرطبة وطليطلة، والمولدون هم في الحقيقـة المسلمون الجدد أو الذين نشأوا نتـيجة الزواج بين العرب وأهل البلاد. والـعرب دخلوا البلاد رجالا فقط لم يدخلوها قبائل بنسائهم وعـيالهم، أي أنهم لم ينشئوا جاليات عربيـة كما كان الأمـر في مصر أو العـراق أو خراسان. اخـتلط الجنسان في الأندلس من أول الأمـر ونشأ جـيل من المولدين يجـمعـون فضـائل الجنسين ويطلبون مكانًا في المجتمع بعد أن انـقطع المد العربي. واعتقد هؤلاء المولدون أنهم هم العـرب الذين ورثوا أنسـاب آبائهم، وأصبـح هذا الجيل الثـالث أو الرابع من المسلمين شـديد الأثر في حيـاة البلاد شعـروا بمركب النقص وأنهم مبعـدون عن أمور الدولة وتقاليدها، وقد زادت الهـوة بينهم وبين أمراء البيت الأموي اتساعًا، فقد منح هؤلاء ثقـتهم لأهل الشام بحكم اتفاق المشارب من ناحية وبحكم امتياز الشاميين عـمومًا في مسائل السياسة والإدارة. وقد تجلت هذه المشكلة الجديدة فـي ذلك الانفجار المروع الذي شـهدته مدينة قـرطبة في عصر الحكم بن هشام، إذ شهدت المدينة ثورة كبـرى لم تشهد البلاد لها مثيلا من قـبل، وهي تعتـبر من أهم الثـورات الاجتـماعـية التي عـرفتـها الحـياة

الإسلامية، لا تقل أهمية عن ثورة الزنج في العراق في عهد المعتمد العباسي. وقد تولدت هذه الثورة في الحقيقة من عاملين: الأول تحريض فقهاء المالكية في قرطبة، (ذلك أن مذهب مالك صادف قبولا وانتشارًا في إسبانيا الإسلامية في عهد هشام بن عبد الرحمن واكتسب فقهاء هذا المذهب مكانة كبيرة في الدولة في عهد هشام) فلما تولى الحكم أبعد هؤلاء القضاة والفقهاء ولم يخضع لنفوذهم كما خضع أبوه من قبل، اغتاظ الفقهاء لذلك كله وتربصوا له حتى أشعلوا ثورة قرطبة. والعامل الثاني الذي حرك هذه الثورة هو سخط جماهير المسلمين والمولدين التي تجمعت في حي يقع على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير ويصله بالمدينة جسر قرطبة الشهير، وقد حنقت الجماهير على جنود الدولة من العرب والموالي وأحسوا بأنهم أحق بهذا الأمر منهم.

واستغل الفقهاء أحقادهم فأشعلوا نارًا وهم العامة بمهاجمة قصر الأمير نفسه للقضاء عليه ولم يتمكن من إخماد الثورة إلا بعد جهد، وتكررت الثورة بعد ذلك بسبع سنوات واشتعلت بصورة أقوى مما كانت عليه في الماضي. وخرجت جماعات كبيرة مسلحة بالبلط والعصى والسكاكين وكل ما وصلت إليه أيديهم من سلاح وفاجأت هذه الجموع الأمر وحاصرته في قصره ولكن سرعة بديهته هدته إلى فكرة مكنته من النصر، فقد استدعى بعض قواته وأمرها بأن تذهب إلى حي الربض فتشعل فيه النار بينما تقاتل بعض القوات الأخرى على أبواب القصر، ولما رأى الثوار مساكنهم تحترق أسرعوا إليها لينقذوا أولادهم ونساءهم، وعلى الجسر هاجمتهم القوات من الأمام والخلف وأوقعت بهم مقتلة عظيمة. ولم يكتف الحكم بذلك بل أعلن الربض بالرحيل عن الأندلس وأجلهم ثلاثة أيام فمن رؤى بعدها في البلاد ضربت عنقه، ثم هدم الحي وأحرقه، فهذه الثورة إحدى الثورات الكبرى التي انتهت إلى تمكين الحكم لبني أمية وأزالت قوة الفقهاء وحطمت نفوذ الجماهير. أما الأفواج

الكثيرة التي هاجرت من الأندلس فقد ذهب فريق منهم إلى مدينة فاس فأقام بها وسار فريق آخر نحو الشرق برًا وبحرًا فهاجموا الإسكندرية واستولوا عليها بمساعدة بعض العربان وأقاموا فيها حكومة حتى زحف عليهم والي مصر عبد الله بن طاهر وحاصرهم بها وجلوا عن المدينة وقصدوا كريت فاستولوا عليها وأقاموا فيها دولة إسلامية ظلت وقتًا غير قصير عرفت بالدولة الكلبية. وقد ثار المولدون في مناطق أخرى غير قرطبة فاندلعت ثورتهم في مدينة طليطلة، (هذه المدينة التي لم تعرف الهدوء أبدًا في ظل بني أمية) فقد كانت بلدًا يدين بالمسيحية قبل أن يدخلها المسلمون، ثم استقرت بها جاليات من المسلمين، لكنها لم تفقد مكانتها في زعامة المسيحية وإن أهلها من النصارى قد استعربوا مع احتفاظهم بحياتهم الخاصة واستقلالهم. وكان الراغبون في الخروج عن طاعة الدولة الإسلامية من أهل طليطلة يستطيعون دائمًا الاستعانة بأمراء النصرانية في الشمال، على كل حال أعلن المولدون الثورة بطليطلة في أيام الحكم الأول وشجعهم المستعربون وتولى قيادة أولئك رجل اسمه غريب بن عبد الله ظل يناوئ الحكم فلم يتمكن الأمير من القضاء على هذه الحركة إلا بعد وفاة غريب هذا وقد أنزل بهؤلاء المولدين مذبحة أشبه بمذبحة قرطبة، وقد قيل أنه قتل منهم نحوًا من 700 ويذهب البعض إلى أنه قتل 7000، على كل حال استتب له أمر المدينة من بعد هذا، وسيظل المولدون متربصين ليطلوا برأسهم في عهد الضعف بعد وفاة عبد الرحمن الأوسط.

ثورات المستعربين:

ومن الغريب أن يمتد لهب الفتنة إلى طائفة المستعربين الذين ظلوا على دين آبائهم واستعربوا لسانًا وحضارة وعقلية، وهم الذين نعموا في عهد

الحكم الإسلامي لما لم ينعموا به من قبل من حريات دينية ومدنية وظفروا بامتيازات اقتصادية طوال عصر الولاة ولم تتغير أوضاعهم كثيرًا بعد قيام الإمارة.

وما كاد عبد الرحمن يستقر له الأمر حتى مد يده لنصارى البلاد وأولاهم الاحترام واعترف لهم بنظامهم الخاص بل اختار لهم رئيسًا من بينهم يعرف بقومس الأندلسي أو بشيخ نصارى أهل الذمة. واستعان الأمويون بفنهم وخبرتهم ولم يدخروا وسعًا في سبيل إرضائهم وكسب ودهم، بل بدأت تستقر أوضاعهم في عصر الإمارة وعاشوا مع المسلمين متمتعين بحقوقهم وحرياتهم. ولا ينكر أن أعدادهم كانت كبيرة، فإنه رغم الأشواط الكبيرة التي قطعتها الحركة الإسلامية منذ الفتح إلا أن جماعات المعاهدين أو المستعربين ظلت ذات قوة ونفوذ سواء في المدينة أو الريف، ولم تكن قوتهم نابعة من أعدادهم الكبيرة بل كانت نابعة من أوضاعهم الاقتصادية، فقد تجمعت لهم الثروات الكبيرة من اشتغالهم بالزراعة أو بالصناعة ومساهمتهم في الحركة التجارية. وكان من الممكن رغم هذا أن تتوثق صلتهم بالحكم الأموي أكثر من ذي قبل، طالما أن هذا الحكم لم يتضمن اعتداء على أوضاعهم، وكان من الممكن أيضًا أن يزداد نفوذهم وتتضاعف أموالهم كلما ازدادوا ارتباطًا بالدولة وإخلاصًا لها، لكن مظاهر التذمر تفشت بين المستعربين بعد وفاة عبد الرحمن الأول مباشرة وامتلأت أخبار الأندلس طوال عصر الإمارة بثورات المستعربين وفتنتهم. وليس من العسير أن تعلل هذه الثورات، فهي لم تكن رغبة في زيادة ثروة أو مضاعفة جاه، إنما كانوا يتأثرون بناحيتين: ناحية نفسية صرفة هي إحساس بالقلق الناجم من تناقص أعدادهم بمضي الزمن وانحدارهم التدريجي إلى مستوى الأقلية بأطراد الدخول في الإسلام، وما كانوا يشهدونه من ازدياد نفوذ إخوانهم المسلمين فكان هذا

الشعور يولد في نفوسهم الحقد والكراهية، وقد نجد لهذه الأزمات النفسية نظيرًا في مصر طوال العصر الأموي وأول العصر العباسي حينما وجد المسيحيون في مصر أعدادهم تتناقص ونفوذهم يتقلص وإخوانهم الذين أسلموا حديثًا يعلو نجمهم في حياة البلاد. ويمكننا أن نضيف إلى هذا عاملا آخر له باعتبار أقوى وهو الأصابع الأجنبية التي أرادت أن تستغلهم لمضايقة الأمويين وإجبارهم على العيش في جو قلق مضطرب، كان المستعربون يتلقون التحريض من ناحيتين، من ناحية البابوية النامية التي كان يفزعها تقدم الإسلام في شبه الجزيرة، ومن ناحية الممالك التي كانت تأمل في التوسع صوب الجنوب وكان يعينها أن يشيع الانقسام لتحقيق أطماعهم. على كل حال ظهرت بوادر الفتنة في عهد عبد الرحمن الأوسط (وتجلى فيها ما سبق أن ذكرناه من تأليب الكنيسة وتحريضها). وقد لعب الدور الأول فيها الراهب الفارو من أهل قرطبة، وكان أول الأمر شابًا موسرًا من بيت من أغنى بيوت المستعربين في العاصمة لكنه ترك الدنيا ووهب نفسه للعبادة واحتل مكانة عظيمة في عالم الرهبنة الإسبانية، وإذا به في أواخر أيام عبد الرحمن يدعو إلى الخروج على حكم المسلمين ويؤلب الناس ويثيرهم حتى امتلأت قلوبهم بالحقد على الدولة والرغبة في التخلص منها. وظهر محرضون كثيرون غير الفارو منهم الراهب يولوجيوس وفتاة تدعى فلورا. وتجلى هذا التحريض في صورة فريدة في بابها ذلك أن المتهوسين من هؤلاء الثائرين كانوا يتحدون شعور المسلمين في الطرق علانية فيسبون الإسلام وصاحب الدعوة حتى قبض عليهم ويقتلون ويكتسبون الشهادة. وانتشرت هذه الحركة الهستيرية في أغلب مدن إسبانيا الإسلامية وسببت حرجًا كثيرًا للدولة. والمؤرخون يذكرون أسماء كثيرين من هؤلاء. وكان قضاة المسلمين يتحرجون قبل الحكم على هؤلاء الانتحاريين، فكانوا لا يتعرضون لهم بالأذى إلا في حالة الإضرار والعنف.

ولكن شرر هذه الفتنة ما لبث أن عم البلاد بأسرها، وإذا كان عبد الرحمن الأوسط قد واجه هذه الحركة بالاتزان والتعقل، إلا أن هذه الحركة ستترك مظاهر سيئة في عصر الضعف بعد وفاة عبد الرحمن إذ سيضطر خلفاء عبد الرحمن الأوسط إلى مزيد من البطش وهدم الكنائس والاضطهاد مخالفين التقاليد السمحة التي استمرت في البلاد منذ الفتح. وتصرفات هؤلاء الرهبان دعاة الاستشهاد لا نجد لها تفسيراً إلا الفزع العظيم من انتشار الإسلام المطرد والرغبة في أن يدفعوا البقية إلى الصمود والمقاومة، ونجد في أقوال هؤلاء الرهبان جميعهم الحسرة على انتشار الإسلام والهلع على مصير الكنيسة. وكان المسيحيون في أوروبا عامة يشجعون هذه الحركة ويباركونها ويرون فيها الشرر الذي قد يحيل جو إسبانيا الإسلامية ناراً تحترق. والمؤرخون يشيرون إلى وفود الرهبان الذين قدموا من فرنسا لجمع عظام هؤلاء المستشهدين لتعرض في باريس وغيرها من عواصم أوروبا لاستثارة الحمية في النفوس[1]. توفى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بقرطبة في الخامس والعشرين من ربيع الآخر 172 هـ (الثلاثون من سبتمبر 788 م) وخلفه ابنه هشام الرضا، فأثارت إمارته ثائرة الطامعين في الإمارة من أخوته، وتمثل ذلك في كل من أبي أيوب سليمان وعبد الله، وكان سليمان أكبر أبناء عبد الرحمن الداخل، يتولى طليطلة في حين كان هشام وهو دونه في العمر يتولى مدينة ماردة بينما كان عبد الله الابن الثالث لعبد الرحمن مقيماً في قرطبة. وكانت الإمارة في الواقع محصورة بين سليمان وهشام فلما حضرت الوفاة الأمير عبد الرحمن ابن معاوية، أوصى ابنه عبد الله بأن يسلم مقاليد الأمور في البلاد لمن يصل أولا منهما إلى قرطبة، فلما علم هشام بوفاة والده أسرع بالمسير إلى قرطبة، فدخلها قبل أخيه سليمان ونفّذ عبد الله وصية أبيه وسلّم على هشام

(1) د. حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 20.

بالإمارة وأدخله قصر الإمــارة. فلما بلغ سليمان ما حدث أعــلن العصيان ثم انضم إليه أخوه عبد الله عندما يئس من إشراك هشام له في الحكم. ولـم يجد الأمير هشام إزاء مــوقف أخويه العدائي منه إلا محاربتهمــا، وقد انتهى الأمر بأن طلب عبد الله الأمان، فأمنه هشــام وأكرمه، وتم الاتفاق بينه وبين هشام على أن يرحل من الأندلس إلى أرض المغرب، أمــا سليمان، فقــد أخذ يتنقل بين مدن الأندلس يستشير أهلها على الأمير هشام ويجمع الأنصار المؤيدين ثم انتهى أخيرًا إلى بعض أقاليم ماردة، فأرسل إليه هشام جيشًا بقيادة ابنه معاوية بن هشام 174 هـ (790 – 791 م) فتمكن من إيقاع الهــزيمة بسليمان الذي فرَّ إلى بلنسية الحصينة لاجئًا إلى البربر المستقــرين بها ومحتميًا بمسالكها الوعرة. ومن هناك بدأت المفــاوضات بين الأخــوين، وانتهت بمنح ســليمــان الأمان، وستين ألف دينار مقابل الهجرة إلى بلاد المغرب بأهله وأمواله وأولاده.

لم يعين عبد الرحمن الداخل ابنه الأكبر سليمان خليفة له إنما اتخذ ابنه الأصغر «هشام» وليًا لعهده. ولقد نشــأ سليمان بالمشرق وكان له من العمر 4 (أربع) سنوات (في 132 هـ/ 750 م) عندمــا اضطر والده إلى الهــرب من الشام، كــما رأينا. وبعد ذلك أرسل والده مبـعوثًا للبحث عنه فـجاء به إلى قرطبة 147 هـ (3 – 764 م) أي أنه كان يبلغ من العمر 42 عامًا عندما شغل كرسي الإمــارة. أما عن هشــام فكان أصغر منه إذ هو مــولود بالأندلس سنة 139 هـ (757 م) فكان له من العمر 30 عامًا عند موت والده. ولقد تعهد عبد الرحمن الأمــيرين وأشرف عــلى تعليمهــما، ولكن كان لــكل منهما مـزاجه الخاص، فبينمــا تكوَّن هشام تكوينًا علميًا متينًا، كمــا أظهر إيمانًا قويًا وعرف بصحة ورعه وحلاوة طباعه – حتى لقب «بالرضا» وحتى شبه في سيرته بعمر ابن عبد العــزيز – وكذلك تعلقه بالآداب، ظل سليمان جـاهلا إلى حد ما. وكان عبــد الرحمن الأول قد عــهد إلى كل منهما بالقــيادة والولاية في بعض

الأقاليم، فعند موته كان سليمان واليًا لطليطلة وكان هشام واليًا بماردة. وحضر وفاة عبد الرحمن بقرطبة أخوهما الأصغر عبد الله الذي سيسمى «البلنس» فيما بعد. فأخذ البيعة لهشام الذي عاد بسرعة وتربع على عرش الإمارة في جمادى الأولى 172 هـ (7 أكتوبر 788 م). ولن يطول عهد هشام أكثر من 7 سنوات وتقول الرواية أن أحد المنجمين أنبأه بقصر عهده ووفاته المبكرة (المنجمون سيكونون باستمرار ضمن حاشية الأمراء الأمويين بالأندلس، كما كان الحال بالنسبة لبلاط ملوك المسلمين الآخر وكان الأمير لا يقوم بعمل إلا بعد استشارة منجميه). وربما كانت هذه النبوءة القاسية بمثابة هزة نفسية جعلت الأمير يعرض عن متاع الدنيا ويعتنق مبدأ الزهد والتصوف ويعمل على تطهير روحه وقلبه (قال له الضبي ما بين الستة إلى السبعة فأطرق عنه ساعة ثم رفع رأسه إليه فقال له يا ضبي: والله لو أنها في سجدة الله لهانت وكساه وحباه وصرفه إلى بلده وطرح الدنيا ومال إلى الآخرة ورحمة الله إلخ). فاقتصد في ملبسه ومركبه وتولى النظر في الرعية بخير ما نظر به ناظر من الرفق والعدل والتواضع وعيادة المرضى وشهود الجنائز. ورغم إعراض هشام عن الدنيا فإن هذا لم يمنعه من التمسك بالملك وبدء عهده بالصراع ضد أخيه الأكبر الذي لم يرض بالتنحي عن السلطان، والذي لم يعدم الأنصار. والظاهر أن عبد الرحمن كان في أواخر أيامه كثير التردد في تعيين هشام واليا لعهده، وربما أمر ابنه عبد الله بأن يجلس على العرش أول من يصل من أخويه الأكبرين إلى قرطبة وأنه ربما علل تردده وهو يحتضر بأن لهشام دينه وعفافه وإجماع الناس وأن لسليمان سنّه وإقدامه وشجاعته وحب الشاميين .وعندما علم سليمان. بارتقاء أخيه العرش خرج من طليطلة واتجه نحو قرطبة لفتحها ولكنه انهزم في منطقة جيان واضطر إلى العودة إلى مقره حيث سيلحق به أخوه عبد الله الذي لم يرتح هو أيضا إلى ولاية هشام رغم

احترامه لوصية والده. ورغم كراهية هشام لأعمال العنف فإنه لم يكن ليستطيع أن يترك أخويه يتماديان في غيهما فقرر المسير إلى طليطلة 173 هـ (789 م) وطوقها لمدة شهرين حتى اضطر سليمان إلى الهرب نحو تدمير(مرسية) حيث حاول إثارة البلاد. ولكنه اقتنع بعدم جدوى مجهوداته وعرض خضوعه في السنة التالية. فاشترط عليه هشام أن يغادر البلاد، ودفع إليه نظير ذلك بـ 70 ألف دينار. وغادر سليمان (أكبر أبناء عبد الرحمن) البلاد وذهب ليستقر في مكان ما ببلاد البربر وفي هذه الأثناء سيهاجر أخوه عبيد الله هو الآخر إلى المغرب حيث يقيم حتى وفاة الأمير هشام. ولقد امتاز عهد هشام الأول بالهدوء النسبي في الداخل. فعدا ثورة الأميرين المروانيين وما يقال من أنه سجن ابنه عبد الملك لشيء بلغه عنه، طيلة حياته، لا يذكر الكتاب إلا ثلاث فتن قمعتها جيوش قرطبة بسهولة. ففي 172 هـ (789 م) رفع سعيد ابن الحسين الأنصاري راية العصيان في منطقة طرطوشة واستنصر بعصبيته من اليمنية. ولكن هزمه أمير أراجوني كان في خدمة هشام الأول، هو المولد موسى بن فرتون (بن قسي الذي استعاد كذلك سرقسطة التي كانت ثائرة. ولكن بعد قليل ستخرج عاصمة أراجون من جديد على سلطان الأمويين: إذ سيقوم أحد أبناء سليمان بن يقظان بن العربي، حليف شرلمان القديم، وهو مطروح بالثورة في برشلونة ويستولى على سرقسطة وكذلك وشقة. فسير الأمير حملة بقيادة عبيد الله بن عثمان هزمته، وانتهى الأمر بقتل مطروح (قتله بعض أصحابه، وهو يتصيد بالبازي، وأتيا رأسه عبيد الله بن عثمان). وفي 178هـ (5- 796م) ثار البربر بدورهم في إحدى مناطق الجنوب حيث كانت لهم الأغلبية: هي منطقة تاكرّنا أي سلسلة مرتفعات جبال رندة. وقمعت ثورتهم بقسوة بالحديد والنار. أن يقول الكتاب أن كورة تاكرنا وجبالها بقيت خالية 7 (سبع) سنين.

الجهاد ضد الأشتوريشيين والإفرنج على عهد هشام:

يعود الفضل إلى هذا الهدوء النسبي في الداخل في تشجيع هشام الأول الورع على أن يقوم في صيف كل عام من عهده بحملة في أرض أشتوريش، وأن يتخذ موقفا عدائيًا إزاء الدولة التي أسسها ألفونس الأول، وهذا ما لم تسمح به الظروف لوالده. ولم ينس كتاب إسبانيا الإسلامية رواية تفصيلات هذه الحملات الصيفية المسماة صوائف (aceifa بالإسبانية) التي تتابعت في شمال غرب الجزيرة ففي نفس السنة التي أصبح فيها هشام أميرًا جلس على عرش أشتوريش ملك جديد هو برمند الكبير. وبعد 3 سنوات أي في 175هـ خرج جيشان مسلمان لمهاجمة ممتلكاته: قاد الأول منهما عبيد الله بن عثمان الذي صعد في وادي الإبرة حتى ألبة وألحق بالنصارى هزيمة دامية، وكان على رأس الجيش الثاني القائد يوسف بن بخت الذي التقى إلى جهة الغرب بالملك برمند نفسه وهزمه هزيمة منكرة. منطقة شمال إسبانيا الواقعة على الضفة اليسرى لأعالي وادي الإبرة - يفصلها عن البحر مناطق Ipuzcoa وVizcaye ومن الغرب أرض la Bureba وCastilla la Vieja (القلاع بالعربية). قشتالة القديمة هذه تمتد من ضفة الإبرة اليسرى إلى محاذاة مضيق Pancorvo أي قرب جنوب Santander. وفي السنة التالية 176 هـ (792 م) هاجم القائد عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث ألبة بنجاح من جديد، وذلك بعد قليل من ملك خليفة برمند الأول وهو ألفونس الثاني (أذفونش) (791 - 842) الذي نقل عاصمته إلى أفيدو. أما عن صائفة 178 هـ (794 م) فكانت أقل حظًا. إذ قام طابوران يقودهما كل من عبد الملك بن مغيث وأخيه عبد الكريم، واتجها أولهما نحو أشتوريش والآخر نحو ألبة. خرَّب طابور ألبة هذه البلاد بينما اندفع الطابور الآخر حتى أفيدو التي نهبها، ولكن عند عودته فاجأه الأشتوريشيون وشتتوه في إحدى مناطق المستنقعات. ولم يقتل القائد عبد

الملك بن مغيث في هذه المعركة كما يظن. إذ أنه سيقود فيما بعد في 187 هـ (803 م) حملة ضد مملكة أشتوريش.

وسيثأر عبد الملك بن مغيث قريبًا لفشل 178 هـ (794 م). ففي السنة التالية 179 هـ خرج من قرطبة واتجه نحو اشترقة واستولى عليها، ومن هناك اتجه للقاء ألفونس الثاني. ولم يتحمل ألفونس ضغط الجيش الإسلامي ففر هاربًا بعد لقاء دام. وتبعه القائد العربي بمساعدة قائده فرج بن كنانة حتى جبل أشتوريش وأجبروه على الفرار من قلعة على ضفاف النالون Nalon حيث كان قد التجأ وتراجع الطابور الأموي بعد أن كاد يقبض على ملك أفيدو. وفي نفس السنة 179/ 795 سارت حملة أخرى من قرطبة في اتجاه آخر فقام بالنهب والتخريب ولكن عند عودته هاجمته جماعات مسيحية وألحقت به خسائر ثقيلة. وفي السنة التالية سيموت هشام الأول ولن يسمح المجهود الجبار الذي قام به خليفته في سبيل إقرار الأمن الداخلي بالقيام بالحرب ضد شمال غرب الجزيرة إلا في 200 هـ/ 816 م. وهكذا سيتمتع الأشتوريشيون بفترة هدوء طوال حوالي 20 عامًا وسيستفيدون من ذلك في القيام بفتوحات جديدة. وقبل موت هشام ببضع سنوات قام عبد الملك بن مغيث - في الفترة بين صائفتي ألبة - بالجهاد في المنطقة الأفرنجية من جرندة حتى سبتمانيا. وكانت جرندة قد انضمت إلى مملكة قطانيا (أكتين) 169 هـ (785 م) قبل موت عبد الرحمن الأول بقليل. وفي صيف 177 هـ (793 م) حاصر عبد الملك بن مغيث هذه القلعة. ويقول الكتاب العرب أنه فتك بالحامية الإفرنجية وهدم أسوارها وأبراجها وأشرف على فتحها ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها. واندفع بعد ذلك في الطريق إلى نربونة دون أن يلقى مقاومة فأحرق أطرافها وخرب ضواحيها، ولكنه رغم ذلك لم يتمكن من أخذ القلعة عنوة. في ذلك الوقت كان لويس ملك أكيتين في إيطاليا على رأس

خير قـواته واندفع دوق تولورجيلن - غليوم دو الآنف القصـير، كما تسـميه الملحمة الفـرنسية - بسرعـة وحاول دفع الطابور الإسلامي الذي كان يسـتعد للمسـير ضد قرقـشونة (كركسـون) وكان قد جمع أكـثر ما يمكن جمـعه من الجند، ورغم ذلك فكانوا غـير كـافين. وتم اللقاء (على ضـفاف الـ Orbien ليس بعـيدًا عن التـقاء رافد هـذا النهيـر الصغيـر مع الـ Audo، قرب قـرية Villeaigne مباشـرة) وكانت كارثة لا مثـيل لها بالنسبة للدوق غليـوم فانهزم ورغم شجـاعة قـائده اضطر في النهاية إلى الانكـسار أمام ضـغط المسلمين. وغنم المسلمـون غنائم عظيمـة وعادوا إلى قـرطبة بعدد طيـب من الأسرى. ويقول بعض الكتاب أنهما أشهر مغازي المسلمين بإسبانيا الإسلامية. وكان من نصيب هشام الأول وهوالخمس ما قد يقدر بـ 45 ألف أسير (عبد) دون النظر إلى الذهب والفضة، كـما تبالغ الرواية. ولهذا قال بعض الكتاب أنـها أشهر مغازي المسلمين بالأندلس.

الحكم الأول (180 - 206/ 796 - 822) قمع الثورات في الثغور:

في الثالث من صـفر 180 (17 إبريل 796) مات هشـام الأول مبكرًا في الأربعين من عمره بعد حكم طال أكثر قليلا من 7 سنوات. وكان قد عين ابنه الثاني أبو «العاص الحكم» خـليفة له، وليس الأكبر المسـمى عبد الملك. ولد الحكم بقرطبة 154 (77) فكان له من العمر 26 عامًا عندما ولي الإمارة. وكان أمامـه ملك طويل ربما كانت مـعلوماتنا عنه غـير كاملة لـولا اكتشـاف الجزء الخاص به مـن تاريخ ابن حيـان حديثًا. تاريخ الحـكم الأول هذا الذي تتبـعه قصة حكم ابنه وخليفتـه عبد الرحمن الثاني يعطي تفصيلات كـثيرة (فائضة) عن هذين الأميرين الأمويين وصفـاتهما السياسية، هذه التفـصيلات تتعارض بشكل واضح مع المعلومـات القصيـرة الجافة الخـاصة بهذين الأمـيرين والتي

اقتـصر عليهـا الكتاب المتأخـرون. (ومن الطبيعي أن نفـضل اللجوء إلى هذا الجزء غير المنشور من المقتبس بدلا من المصادر المعروفة حتى الآن).

انتهت فـترة الهدوء والأمن التي تمتـعت بها إسبـانيا المسلمة على عـهد هشام القصير أن تنتهي مباشرة بوصول ابنه الحكم إلى العرش. ورغم أن قصة الثورات غيـر المنقطعة التي عاصرت عهود كل ملوك الأسـرة الأموية بالجزيرة تقريبًـا يثيـر الملل فإنه من الصـعب السكوت عن هذه الثورات. فـهي تشغل السياسة الداخلية لكل واحد من الأمـراء، وفي أغلب الأحيان كانت تمنعه من توجيه سياسته الخارجيـة الموجهة التي يراها صالحه مرغوبة، بل وربما اضطرته في بعض الأحيان إلى عدم الرد على إهانات العدو المسيحي للأراضي المتاخمة له، وانتظار بعض الهدوء الداخلي حـتى يوجه مجهوداته إلى الجـهة الأخرى من ناحية الثغور في الشمال - الشـرقي والشمال الغربي. (فعندما تكون النار في البيـت (تشتعل النار فـي البيت) فلا يهـتم بما يسرقـه الجيـران من حوافي المزرعة) وسـتستـمر هذه الخـاصية تشـغل تاريخ الأندلس حتى القـرن الثالث (والتي تثبط عـزيمة المؤرخ، لحوليات أو سنويات إسبـانيا الإسلاميـة) كما هو الحال بالنسـبة لحوليـات بقية الغـرب الإسلامي. بدأ عـهد الحكم الأول بنزاع عائلي من أجل الملك (على غير ما كان ينتظر لـم يعارض الأمير أخوه الأكبر بل) وجاءت المعارضة من جهة عميه اللذين كان قد سبق لهما معارضة أخيهما هشام الأول عند ولايته. هذا النزاع الأول انتـهى باتفاق ودي - كما رأينا -، ولكنه عاد إلي الاشتعال بعد 7 سنوات. فعندما حرم ابني عبد الرحمن وهما سليمـان وعبد الله من عـرش أبيهما اضطر إلـى الالتجاء إلي المغرب. فـأقام الأكبر في طنجة، بينما ساح الثاني في بلاد البربر، فزار أمير القيروان إبراهيم بن الأغلب، الذي لن يلبث أن يتحرر من وصاية العباسيين، ثم زار بعد ذلك عبد الوهاب بن رستم إمام الخوارج بتاهرت. وهناك علم عبد الله بموت أخيه

وملك ابنه الحكم الأول. فعجل بالذهاب إلى إسبانيا ليسبق أخاه الأكبر. سلميان، ولحق بالثغر الأعلى وكان يعرف أن سكانه يكنون العداوة للأمير الجديد. ولكن باءت مجهوداته بالفشل إذ لم يعترف الزعماء المحليون بحقوقه في الملك. وعندما يأس من أمره ذهب 181/ 797 بصحبة ابنيه عبيد الله وعبد الملك لمقابلة شارلمان Aix - la - Chapelle وسنرى فيما بعد ماذا كان الغرض وفي السنة التالية وصل عم الحكم الأول الآخر وهو سليمان إلى الجزيرة وبفضل الجند الذين أمكنه جمعهم على طول الطريق حاول مهاجمة قرطبة مباشرة. وفي فترة سنتين اصطدم ما لا يقل عن ست مرات بجند الأمير حول استجة وفي أودية الـ Genil والوادي الكبير. وفي كل مرة كان ينهزم وفي المرة الأخيرة كانت هزيمته منكرة. وأخيرًا ارتد إلى إقليم ماردة وحاول إثارة أهل المنطقة ولكن هزمه زعيم هذه المدينة البربري وهو أصبغ بن وانسوس، وقبض عليه وقتل. وأرسلت رأسه إلى قرطبة حيث طيف بها في شوارع المدينة على رأس عمود ثم - وهذا تفصيل له دلالته - أمر الحكم بدفنها بما يليق بصاحبها من مظاهر التشريف في مقبرة قصره بجوار عبد الرحمن الأول. أما عن عبد الله فإنه عاد بعد زيارته من Aix - la - Chapelle واستولى على حصن وشقة Huesca في 184 (800) ولكنه أجلى عنها بفضل بهلول بن مرزوق - الزعيم الأراجوني الذي سيذكر فيما بعد - ولحق بإقليم بلنسية حيث استمر في إثارة الاضطراب. وأخيرًا عندما أحس بعدم جدوى آماله، قرر بخضوع افتتاح محادثات مع ابن أخيه. وكانت المحادثات جدية واستمرت ما لم يقل عن 3 سنوات. وأخيرًا أرسل له الحكم الأول أمانة مع الفقيه يحيى بن يحيى الليثي إلى عبد الله على شريطة ألا يغادر بلنسية حيث تركه يتمتع بما يشبه السيادة، كما جعل له شهريًا ألف دينار (حسب ابن حزم - جمهرة الأنساب - امتدت إمارة عبد الله البلنسي شمال بلنسية حتى

طرطوشة وبرشلونة وشقة وجنوبًا حتى تدمـير). وحافظ عبد الله الذي سمي منذ الحين «البلنسي» على مـا اتفق عليه حتى موت الحكم الأول. واسـتدعى الحكم ابني عمـه وزجهمـا من بنتين له، عزيزة وأم سلمـة (الأخيرة سـتعطي اسمها لإحدى مـقابر قرطبة). وسيكون لأحد هذين الأميـرين وهو عبيد الله فخـر قيادة جـيوش قرطبـة في بلاد الكفار (الأعداء) كـما يظهر دائمًـا بمظهر المخلص المثالي، وسيـطلق عليه اللقب الفخم «صاحب الصـوائف» (حملات الصيف).

وإذا تركنا جانبًـا مؤامـرة عمي الحكم الأول وثورة الربض بقـرطبة التي سنتكلم عنها فـيما بعد نلاحظ أن الأمـير كرّس كل عهده لقـمع لهيب الفتن التي كانت تشـتعل في الثـغور الثلاثة المملكة حـول مدن سرقـسطة وطليطلة وماردة. ففي الثغر الأعلى، كمـا لاحظنا سابقًا، كان الموقف مضطربًا دائمًا، فـسلطان الأميـرين الأولين لم يكن يعـترف به هناك لمدة طويلة. فـمجـاورته لسبتمانيـا الفرنجية وبلاد الباسك - نافارا لمستقبلة - ساعـد على قيام علاقات سيـاسية واقتـصادية مع هذه المناطق التي لم يتمـتع فيهـا الإسلام إلا بسلطان عابـر. فجـماعات الـبربر المسـتقـرة في هذا الوقت بوادي الأبرو لم تكن إلا جزائر متناثرة كما يظن، وكانوا في أغلب الأحيان يتحالفون مع الخارجين من العرب في هذا الإقـليم ضد السلطة المركـزية وخاصة مع المسلـمين الجدد من الوطنيين الذين اشتـهرت بينهم عائلة سيزداد نفـوذها مع الوقت والتي ستكون لها في أراجون إقطاعًا وراثيًا حقـيقيًا، إذا لم تصل إمارة: هذه هي أسرة بني قسي. وحسب رواية ابن حـزم كان جد بني قسي كونتاً قوطـيا اعتنق الإسلام عند وصول العرب وذهب إلى الشام يعلن خضوعـه للخليفة. حفيد الكونت قسي هذا وهو موسى بن فـرتون الذي قمع ثورة سعيـد بن الحسين الأنصاري في طرطوشة واستـعاد سرقسطة 172 على عهد هشام. الذي سـيصبح صهرًا

(nigo Arista) لأول ملوك الباسك ببنبلونة حسب بعض الروايات: وسيقوم أبناؤه وحفدته بفضل العلاقات العائلية مع أول أسرة نافارية بدور مهم نحو منتصف القرن الثالث في سياسة الثغر الأعلى. والظاهر أن هذا الدور لم يكن مهمًا على عهد الحكم الأول. وسيظهر شخص مهم آخر بمنطقة سرقسطة وهو مولد آخر أصله من huesca واسمه عمرو بن يوسف الذي تطلق عليه المصادر الإفرنجية Amorroz، عمروس هذا سيكون مخلصًا لأمير قرطبة إخلاصًا تامًا: فبعد أن يعهد إليه الأمير بإخماد فتنة طليطلة 181 (797) كما سنرى فيما بعد يرسله إلى الثغر الأعلى ليقيم النظام ويحتفظ له: حكومة سرقسطة طيلة حياته.

بعد ولاية الحكم الأول بقليل راحت سرقسطة فريسة الفتنة وقام بها ثائر يسمى بهلول بن مرزوق وأعلن استقلاله. وحدث أن وقع سوء تفاهم عابر بين أمير قرطبة الجديد وأعظم قائدين من قواد هشام وهما عبد الكريم بن مغيث وأخيه عبد الملك اللذين حاولا طرد بهلول من سرقسطة حتى يستقرا فيها لحسابهما الخاص. ولكن ذلك لم يجد. وأتى جيش من قرطبة أحرز نجاحًا أكثر إذ اضطر بهلول إلى الهرب نحو أعالي أراجون. وبعد ذلك حوالي 184 (800)، سجل بهلول انتصارًا مهمًا إذ استولى على قلعة Huesca كما سجلت بعض حوادث العصيان التي قام بها بعض أفراد قسي. في هذا الوقت قرر الحكم الأول أن يرسل تابعه المخلص عمروس من طليطلة إلى سرقسطة، وعهد إليه بسلطات دكتاتورية تسمح له بإقامة النظام في الثغر الأعلى. وبمجرد وصول عمروس إلى سرقسطة 186 (802) طارد بهلولا الذي قتل بعد قليل واستولى على أقطاع بني قسي وعاقب مولدي Huesca عقابًا شديدًا لعصيانهم. ولكي يكون له نقطة ارتكازية قوية على حدود أراجون وبلاد الباسك بنى في نفس هذه السنة على الضفة اليمنى لوادي الإبرو في منتصف

المسافة ما بين سرقسطة وبنبلونة قلعة تطيلة Tudela حيث أقر ابنه يوسف مع حامية قوية. وفي نفس الوقت قوي أسوار Huesca وعهد بقيادة هذه المدينة المضطربة إلى ابن عمه شبريط. ومنذ ذلك الحين وحتى موت عمروس 196 (812) سيخلص الحكم الأول من الانشغال بحفظ النظام في ثغر أراجون. ولكن قبل موت قائده بسنتين بدأ يستشعر بعض القلق من جهة قائده المولد الذي كان يعيش عيشة ملوكية على ضفاف الأبرو، والذي أظهر بعض النزوع نحو الاستقلال والميل إلى الاتفاق مع لويس التقي. وعندما بلغ أمير قرطبة ذلك عمل على استقرار الأحوال فعهد إلى قائده عبد الكريم بن مغيث بالمسير على رأس قواته إلى الثغر ولكنه أمره بألا يبدأ بالأعمال العدوانية إلا إذا لم يستمع عمروس إلى الشروط السمحة التي تضمنتها رسالته التي حمله إياها وكان للرسالة تأثيرها إذا حضر عمروس نفسه إلى قرطبة ليؤكد إخلاصه للحكم. وغمره الحكم بعطفه قبل أن يعيده إلى سرقسطة بل وشرفه بأن اختاره زميلا في لعبة الـ Paume. وعندما مات عمروس عهد الحكم بعض الوقت بولاية الثغر الأعلى إلى ابنه نفسه عبد الرحمن، وبعد ذلك قام بالولاية ابن عمروس. وكما كان الحال بالنسبة لسرقسطة كانت طليطلة آهلة بالمولدين وكانت لهم الغالبية، وهؤلاء كانوا لا يميلون كذلك إلى إظهار خضوعهم. ولقد رأينا كيف سببت مدينة الثغر الأوسط كثيراً من المتاعب لسلف الحكم الأول. ففي السنة التالية للملك الأيمر خرجت على سلطانه واعترفت بثائر اسمه عبيد الله بن خمير، كما أن شاعراً قرطبيًا أصله من طليطلة وهو غريب بن عبد الله، انتهز فرصة استيائه من الأمير ولجأ إلى مسقط رأسه وهناك عمل بأشعاره اللاذعة على إثارة الناس واضطراب الجو. في هذه الظروف عهد الحكم الأول إلى عمروس، مولد وشقة Huesca، الذي كان في بداية أمره والذي كان يلي بلدة طلبيرة بالمسير إلى طليطلة والقيام

باللازم وفوضه في ذلك تفويضًا مطلقًا. وبدأ عمروس بالتخلص من زعيم الثورة عبيد الله بن خمير إذ أوقعه في فخ، ثم تفرغ لأهل طليطلة أنفسهم وفتك بأعيانهم، في وقعة الحفرة، تلك المذبحة الشنيعة التي أثارت الكتاب العرب. حقق بروفنسال أن بعض هؤلاء الأخيرين - وتبعهم دوزي - يحددون لهذه الموقعة الوحشية تاريخًا متأخرًا بمقدار عشر سنوات عن التاريخ الذي وقعت فيه حقيقة 191 (807). وعندما وصل عمروس إلى طليطلة بدأ يقنع الأهالي بأنه يحسن به وبعمال الأمير وجند الحامية السكنى بقلعة يبنيها غير بعيد من قنطرة تاجورة شمال شرق المدينة. وفعلا أقيمت قلعة بأسوار من اللبن أو الآجر في مكان القصر Alcazar الحالي. وعندما تم بناء الأسوار أرسل الأمير حسب ما كان متفقًا عليه من قبل ابنه عبد الرحمن على رأس جيش بصفة حملة إلى الثغر واختار طريقه بحيث يمر بالقرب من طيطلة. وخرج عمروس ومعه أعيان طليطلة لمقابلة ولي العهد وطلبوا إليه أن يشرف طليطلة بالزيارة. ولم يقبل عبد الرحمن إلا بإلحاح تلك الرغبة ودعاء عمروس أصاب النفوذ من المولدين بالمدينة إلى سماط (مأدبة) عظيمة بالقلعة وفي حضور ابن الأمير. وكانت الخطة أن يدخل أهل طليطلة القلعة ولا يخرجون فمجرد دخولهم يقادون الواحد تلو الآخر في ممر ضيق ينتهي بحفرة كبيرة - أخذ منها التراب اللبن، وهناك يقطع جلاد وعمروس رؤوسهم ويلقون بأجداثهم في الحفرة. ويقول الكتاب الذين يبالغون عادة أن عدد الطليطليون الذين هلكوا في المذبحة بلغ أكثر من خمسة آلاف، ويقول بعضهم أنهم بلغوا السبعمائة وهذا عدد أقل مبالغة ولكنه كبير جدًا. ويمكننا تصور تأثير مثل هذا العمل الخادع الأثيم على الأحياء وكذلك على مولدي المدن الإسبانية الأخرى. وتمت السيطرة على طليطلة لعدة سنين حتى أنه عندما سار عمروس من المدينة ليلحق بالثغر الأعلى حسب ما طلبه الأمير لم يظهر أهل

المدينة الذين أفزعتهم تصرفات قائد الحكم أية ميل إلى عدم الخروج عن الطاعة وذلك لمدة من الوقت. ولكن مع مرور الوقت تركوا أنفسهم لغريزتهم المالية إلى الثورة ومنذ 196/ 1 - 812 نزعوا قناعهم. ففي هذه السنة وخلال الثلاث سنوات التالية ثم في سنة 203/ 8 - 819 اضطر الأمير إلى إرسال طوابير بوليسية إلى الثغر الأوسط ومحاصرة أهل طليطلة في مدينتهم، ولكن دون نتيجة إيجابية في العادة.

وفي الثغر الأسفل قام الصراع ضد المولدين والثوار من البربر، في مدينة ماردة مركز المقاومة حيث كانت جماعة المستعربة تشترك من جانبها في المعارضة، وقام بتدمير وتوجيه حركة العصيان هناك الزعيم المخلص القديم أصبغ بن أونسوس ضد أمير قرطبة. وبدأت عمليات القمع التي قام بها الحكم الأول 190 (5 - 806) واستمرت 7 سنوات. ومات أصبغ 192 (7 - 808) ولكن ذلك لم يقر السلام بماردة التي لم تستسلم إلا سنة 197 (813). وفي 201 (817) كان ينبغي قمع ثورة أخرى وكان علي بن الأمير (ولد = infant) وهو عبد الرحمن الذهاب إلى ماردة على رأس جيشه. وفي خلال هذه الفترة في 193 (8 - 809) قام مخاطرعي طملس بالثورة في لشبونة ولكنه قتل في نفس السنة، خلال حملة قام بها ابن الأمير الآخر وهو هشام الذي أقر النظام في كل البلاد الواقعة بين لشبونة وكويمبير (Coimbre).

الشعب بقرطبة: مؤامرة سنة 189 هـ/ 805 م ووقعة 202 هـ/ 818 م:

هذه كانت القائمة المطولة للثورات الرئيسية التي شغل قمعها الجزء الأكبر من عهد عبد الحكم الأول، وذلك إذا لم تضف إليها حدثين خطيرين أدميا قرطبة، وتفاصلهما فترة حوالي 13 سنة، وكان أحدهما على الأقل يكلف ثالث أمومي بإسبانيا عرشه. وكما كان الحال بالنسبة لثورات الثغور لم

يكن للعباسيين أعداء الأسرة الأموية الشامية التي أعادت ملكها بالغرب الإسلامي دخل مباشر في هاتين الثورتين فالظاهر أنهم تركوا نهائيًا أطماعهم في الأندلس. وكذلك كان الأمر بالنسبة للحركات الدينية التي انتشرت والتي نجحت في بقية العالم الإسلامي بالمشرق والمغرب حتى انتهت في بعض الأحيان إلى قيام حركات انفصالية أو هرطقية فإنها لم تجد أرضًا طيبة للنمو في إسبانيا في القرن التاسع الميلادي وذلك حتى بداية الدعاية الفاطمية. فليس هناك في عهد الحكم الأول سوى محاولتين لنشاط سياسي من جانب البربر الخوارج الذين وجدوا تأييدًا في جنوب البلاد بمورون (Moron) والجزيرة الخضراء قضى عليهما الأمير بسرعة. فالمذهب الخارجي الذي كان شعبيًا في المغرب لم يتمكن من غرس جذوره في أرض الأندلس: وبعد قرنين لن يلاحظ ابن حزم (نقط العروس) في كل من إسبانيا المسلمة سوى جماعة صغيرة من الناس لهم ميول خارجية بمنطقة ألمرية.

كان مظهر قرطبة قد تغير كثيرًا عما كان عليه على عهد عبد الرحمن الأول. فمنذ أن أصبحت المدينة التي كانت مهمة وأهلة بالسلطان على العهد القوطي، عاصمة للإمارة الأموية الإسبانية ضمت بين أسوارها كثيرًا من العرب الآتين من المشرق أو من المغرب العربي وكذلك عددًا من المغاربة ممن كانوا من أصل بربري. ولقد رأينا كيف أنه وجب إعادة بناء المسجد الجامع بشكل أكبر 169 هـ (785 م) حتى يمكن له ضم عدد المؤمنين الذين كانوا في ازدياد مستمر. ومن جهة أخرى بعد أن أصلح هشام الأول القنطرة الرومانية على الوادي الكبير لم يصبح هذا النهر عقبة تحول دون امتداد المدينة على الضفة اليسرى، وفعلا امتد ربض (ناحية) صاخب مزدحم بالسكان من ضفة النهر حتى أطراف قرية شقندة (Secunda) القديمة المجاورة. لم يكن يقطن هذا الربض عامة قرطبة فقط والصناع وصغار التجار من المولدين أو النصارى

فقط. فبفضل جواره للمسجد الجامع وقصر الإمارة الواقعين قرب الوادي الكبير على الضفة اليمنى مباشرة والذي يفصل الواحد منهما عن الآخر شارع طويل مزدحم يؤدي إلى القنطرة وهو «المحجة العظمى» وجد كثير من أهل قرطبة ممن تدعوهم وظائفهم أو دراستهم إلى الوجود في مركز الحكومة أو المسجد الجامع بالمدينة أنه من السهل عليهم الاستقرار في الضاحية الجنوبية: فهناك عاش بوجه خاص معظم طلبة مالك بن أنس القدماء الذين أصبحوا فقهاء مشاهير من ذوي النفوذ. ولن تتأخر ضاحية الشاطئ الأيسر للوادي الكبير حيث يعيش أفراد الطبقة الدينية الأرستقراطية جنبًا إلى جنب مع العناصر المضطربة من شعب قرطبة في أن تصبح داخل العاصمة السياسية والفكرية للمملكة مركزًا للمعارضة يعمل على إثارته افتقار الأمير إلى سياسة المداراة ثم عنقه وشدته في أحكامه السريعة. هذه المعارضة لن تلبث أن تكتسب مؤيدين يعطفون عليها داخل المدينة نفسها. وهكذا منذ السنوات الأولى لعهد الحكم الأول لوحظ وجود تيار قوي من السخط والكراهية في كل الطبقات الاجتماعية بقرطبة وذلك بالنسبة للأمير الذي ظهر مستبدًا يتبع سياسة مالية خاطئة ويميل إلى العنف أكثر من ميله إلى الاعتدال، والذي لا يهتم كثيرًا بسخط رعيته بجرأته في المسائل المالية (جمع الضرائب) وحشد الأجانب.

كان الجو عاصفًا إذن بالعاصمة، عندما دارت الألسن يومًا تقول بأن 72 رجلا وليس أقل من ذلك، قتلوا بأمر الحكم، وأنهم مصلوبون أمام الناس على الرصيف وهو جسر الوادي الكبير المحاذي للضفة اليمنى، شرق باب القنطرة، والذي يمتد حتى المصارة، حيث انتصر عبد الرحمن الداخل انتصاره الفاصل على يوسف الفهري وحيث يوجد المصلى المخصص لصلاة العيدين. كان ذلك في شهر جمادى الثاني 189 هـ (مايو 805 م). ولقد دار «سيناريو»

هذه الأحداث هكذا اتفق عدد كبير من أعيـان قرطبة، بينهم بعض الفقهاء، على التآمر ضد الأمـير وخلعه، وإجلاس أموي آخر على العـرش هو محمد بن القاسم، أحد بـني عمومة الأمـير. وتظاهر الأموي بقبول اخـتياره ولكنه أسرع بنذر الحكم وأعطاه قائمة بأسماء المتآمرين. وفي نفس اليوم قبض الأمير عليهم وسلمـهم إلى الجلاد. وفي نفس الوقت تخلص عميـه اللذين كانا في السجن منذ جلوســه على العرش وهما مسلمـة المسمى كليب وأمية ابــنا عبد الرحمن الداخل وذلك بتدبير قتلهما في محبسهما. ومن بين المصلوبين الـ 72 كان هناك أحد أبناء قاض قديم لقرطبة وصاحب السوق (الذي كان يقوم بمهام محافظ المدينة) وأحد خصيان القصـر وأخيراً أحد طلبة مالك بن أنس القدماء وهو الفقيه يحيى بن مضر.

وكان حكم الحكم القـاسي، أثر اكتشـاف هذه المؤامرة، سبـبًا في إثارة الخواطر بعنف بقرطبة، وازدياد السخط، فكثر الهياج في الاجتماعات العامة، وزاد اللغط في المساجد، وخيف من الجواسيس والمرشدين. ولم يمكث الأمير من جهته دون نشاط. فأمر بإصلاح أسوار العاصمة التي كانت متصدعة بعض الشيء، وأن تسد الثغـرات، وأن يحفر خندق يدور حولهـا، وأن تهيأ أبواب السور وتقوى. وفي السور غـير بعيد من الزاوية الجنوبية الشرقية. فـتح فتحة جديدة هي الباب الجديد «ومنها يسير طريق إلى مخاضة في النهر، أمام المدينة قليلا. وفي القصر جمع الـسلاح واشترى من خارج إسبانيـا الإسلامية في كل مكان ممكن العبـيد لحرسه الخـاص: وهكذا كون حرسًـا خاصًا قويًا، وعــهد بقيـادته إلى رئيس نصـارى قرطبـة وهو القومس ربيع بن تدلقـة. وفي السنة التالية 190 هـ (806 م) كانت هناك معركة خطيـرة في الناحية الجنوبية. وكان صاحب السوق قد اتخـذ قراراً غضب له التجار فقـاموا يتظاهرون في الشارع وهم يحملون الســلاح. كان الحكم في ذلك الحين يحاصر مـاردة، فطير إليه

الخبر في التـو واللحظة فعجل بالعودة إلى قرطبـة في بحر ثلاثة أيام، وعمل شخصـيًا على النظر في الحادث. وقبض على المهيج الرئيـسي وهو أحد تجار الربض وصلب، كما قـتل عدد من أهل قرطبة ممن كان لهم يد فـيما حدث. ولقد كـان ذلك حادثًا عـاديًا يعبر عن الروح السـائدة في العاصـمة، والذي سيثيـر، بعد اثنتى عشر سنة في نفس الربض فتنة لا مثيل لها من قبل. ففي الفترة ما بين الحادثين، زادت مشاعر الناس اضطرابًا، كما لم يستعمل الفقهاء الساخطون - لعدم اهتـمام الحكم بآرائهم - نفوذهم في تهدئة خـواطر العامة من أهل قرطبة، بل على العكس يظهر أن ميـولهم المعادية للأمير عملت على استمرار الاضطراب واشتعال الفتنة ورغم المعلومات المعروفة عن النشاط الذي أظهره في هذه المـناسبة اثنان من فـقهاء قـرطبة همـا يحيى بن يحيـى الليثي وطالوت بن عبـد الجبار المعـافري. فإنه من المبـالغ فيه، مـا نسب حتى الآن إليهما من تحميـلهما كل مسئولية الفتنة الشعبـية التي انطلقت في العاصمة في 13 رمضـان 202 هـ (25 مارس 818 م) والتي ترتب عليـهـا أعمـال القـمع الوحشية التي قام بها الأمير الأموي في الأيام التالية.

قـام الحكم بإجـراءات زادت من هيـاج الناس وذلك أنه فـرض مغـارم (ضرائب) جديدة، وزيادة على ذلك فـإنه عهد بجمعها إلى رجـل غير مسلم هو القديس ربيع، الذي كان يقود الحـرس من النصارى بالقصر. وأتت شرارة اشتعلت النـار في البارود. وذلك أن أحد حرس الأميـر تنازع مع أحد أهالي الربض الذي أهمل شحذ سلاحه بسرعة فـقتله الجندي بسيفه. وفي هذا اليوم بالذات كان الحكم قد خـرج للصيد في جنوب العاصمـة في الريف (الكامينيا Campina)، وعند عودته مـر الربض في طريقه إلى القصر فـاستقبله الـعامة بالصراخ والشتائم. وقبض حرسه على عشرة من المتظاهرين صلبوا في الحال. ولم يكد الأميـر يعود إلى قصره حتى اشـتعلت الفتنة في الجـهة الأخرى من

النهر. أغلقت الأسواق وتسلح التجار والصناع وبقية العامة بالقضبان والسكاكين والفؤوس واتهجوا جماعة نحو قنطرة الوادي الكبير، بغرض مهاجمة أبواب القصر. واتخذ اثنان من حاشية الحكم وهما عبد الكريم بن مغيث «الحاجب» وفطيس بن سليمان «الكاتب» الاستعدادات اللازمة. فبينما كانت جماعات الجند تحافظ على النظام في قرطبة نفسها، جمعا قرب القنطرة كل ما وجدا من القوات في القصر لكي يمنعوا الثوار الذين كانوا يزدادون دون توقف، وبدأت مقاومة المخلصين للأمير تضعف وكادت صفوفهم تتداعى، عندما أنقذ الموقف المناورة الماهرة التي قام بها قائدا الحكم . . . فمنذ البوادر الأولى للفتنة عمل عبد الله صاحب الصوائف وابن عبد الله البلنس هو وأمير مرواني آخر اسمه اسحق بن المنذر على دعوة الفرسان النظاميين المنتشرين بقرطبة نفسها وخرجا من الباب الجديد نحو المخاضة، حيث عبروا الوادي الكبير، وعبروا أرضًا كثيرة الأعشاب كانت تخفي تحركهم هي دمنة الخشابين، ووصلوا إلى أطراف الربض، ولاحظ العامة الثائرون بسرعة أنهم أخذوا من الخلف. وعندما رأى المدافعون عن القنطرة خيالة الأمير مندفعة أمامهم تحركوا هم أيضًا للهجوم، فتناثر عقد الثوار من كلا الناحيتين. ومنذ اللحظة سرت الفتنة وبدأت مذبحة العامة. وأطلق الحكم الذي نجا بمعجزة عن غضب العامة جنده إلى داخل الربض وأمرهم بألا يتسامحوا على الإطلاق وألا يعفوا عن أحد.

استمرت المذبحة والنهب خلال 3 أيام في الشوارع والميادين وداخل البيوت، ولو استمع الأمير إلى كاتبه فطيس لترك كل أهل الربض يذبحون، ولكنه استمع أخيرًا إلى رجاء وزيره ابن مغيث وأوقف المذبحة، وأمر باحتلال كل منافذ ضاحية الجانب الأيسر، انتظارًا لاتخاذ قرار نهائي. وبعد بضعة أيام أصدر حكمه الذي يتلخص في: قتل 300 من الأعيان من مسببي الفتنة

وصلبهم، نجاة أهل الربض من القتل بشـرط ترك قرطبة دون تأخر، أن تمحى معالم الربض نفسه وأن تحرث أرضه وتبـذر حبًا. ونفذت هذه الأوامر حرفيًا. وحتى نهاية القرن العاشر الميـلادي لم يجرؤ أحد من خلفاء الحكم على خرق تحريم إقامة أية بناء على أرض الـناحية القديمة حسب قسمـه. وكان قمع فتنة 202 هـ/ 818 م الوحشي سببًا في هدوء أهل قـرطبة لمدة طويلة. كما أنه كان سبـبًا في أن يلقب صاحـبه، «بالربضي» ذلك الاسم الذي يميـز الحاكم الأول عن سمـيه الحكم الـثاني الملقب «بالمسـتنصر بالله». بدأت هجـرة كل سكان الربض عدا الفقهاء وعـائلاتهم وهؤلاء عفا عنهم الحكم الأول ابن هشام قبل نهاية نفـس الشهر (رمـضان 202 هـ). وحسب بعض الكتـاب لم يقل عدد العـائلات المهاجـرة عن 20 ألفًـا وهو رقم مبـالغ فيـه. ولجأ عـدد قليل من المهاجريـن إلى طليطلة: فقد كانوا يعـرفون أن مأساتهم ستجلب لهم عطف سكان المدينة المضطربة، ولـكنهم كانوا مـعرضين إلى خطر غـضب وعقـاب الأمير الذي لا يرحم. وهكذا ظهر ضروريًا إلـى معظم الربضيين - سموا هم أيضًا بهذا الاسم - أن يتركوا بلادهم ويعبـروا البحر. فاتجهوا مع أهلهم نحو الشاطئ الإسـباني للبحـر المتوسط، وتعرضت قوافلهـم البائسة إلى كثـير من المتاعب على طول الطريق. وذهب معظمهم إلى مراكـش واستقروا بين قبائل البربـر في الريف وجبـاله وفي بعض المدن الموجودة في هذه المناطـق. حدث هذا في نفس الوقت الذي كـان فيـه الأميـر إدريس الثاني يبـحث عن سكان لعاصمـته فاس التي أسسـها والده إدريس الأول 172 هـ (789 م)، وكان هو نفسـه قد بنى 192 هـ (8 - 809 م) مـدينة جديدة هي العليـة، قرب مـدينة والده، وأسكنهـا المهاجـرين من المغـرب العربي وكـانت غالبـيتـهم من أهل القيروان. أما مدينة إدريس الأول وهي مدينة فـاس الواقعة في مواجهة العلية من الجهة الأخرى لمجـرى النهر فإنه كان يسكنها البـربر فقط فكان من حسن

حظ إدريس الثـــاني الذي كـــان يريد أن «يـعــرب» المدينة القـــديمة أن وصل الربضيــون. فأخــبر أهل قرطبــة أنه يرحب بمن يريد أن يقيم منهــم في مدينة إدريس الأول. وشرع كثير من الربضيين إلى تلبية دعــوته، واستقر الوفد كثير منهم من رجال ونســاء وأطفال في الحي الذي عينه لهم أمام «العـلية» «عدوة القرويين» ولن تتأخر تسمية القرية البربرية التي سكنوها بنفس الطريقة، عدوة مسلمي إسبانيا: ونقلوا إلى مدينتهم الجـديدة تجاربهم في الحياة المدنية، وقتهم الذي ورثوه عن السلف: من زراعة الحدائق والعمارة والصناعة.

وحسب الكتاب العرب كانت هناك جمـاعة أخرى من الربضيين المنفيين من إسبانيا - وهؤلاء أظهروا روح مغامرة وشجاعة أكبر: فبدلا من العبور إلى المغرب قــرر هؤلاء الشجعــان أن يسيحــوا في وسط وشرق البحــر المتوسط. وذات يوم ألقت سفنهم مــراسيها أمــام الإسكندرية. أما عن الحوادث التـالية فإنها مذكورة في حوليات مصر الإســلامية مؤرخة تأريخًا ليس موضعًا للشك ولكنه لا يسمح في نفس الوقت بالتحقق من أن هــؤلاء المغامرين الإسبان هم أنفسهم الذين طردوا 202 هـ/ 818 م. وهنا ينبغي أن يفهم، إذا كــان الأمير يتعلق فعلا بأهل قرطبة - وهذا لا شك فيه - أنهم كانوا قد تركوا إسبانيا قبل قليل من الفــتنة الكبرى الــتي انتهت بتــدميــر الربض، وربما كان ذلك عـقب اضطرابات سابقة، سواء بالأمــر أو بحسب رغبتهم أنفســهم. ومهما يكن من أمر فلم يكن أهل قرطبة هؤلاء من أهل البــحر، وعلى ذلك يظن أنهم ألحقوا بأنفسهــم لكي يحاولوا القيام بهــذه التجربة، بعض أهل المعرفــة من البحارة، ربما من المسلمين الجـدد من أهل السـاحل الإسبــاني. فـعلى طول الســاحل البحــري لإسبانيــا الإسلاميــة، لم يعدم وجود البـحارة المتـمرنين، الذين لم يكونوا ليخافوا مهاجمــة مراكب التجار، لدرجة أن المؤرخ اجينار Eginhard، يقول أن شارلمان اضطــر إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة لقــمع القرصنة. وعلى

كل يمكن أن يقال أن المؤرخين الذين لا يهتمون بالصعوبات التي تتعلق بالترتيب الزمني، لم يحاولوا أن يقاوموا رغبتهم في التعرف على مسلمي إسبانيا في بداية القرن التاسع الميلادي على أنهم الناجون من مذبحة الربض. وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله ظن بعضهم أنه من الضروري تقديم تاريخ الفتنة مدة 4 سنوات.

رحلة المغامرة التي قام بها هؤلاء الإسبان بالمشرق كانت فريدة تستحق أن تذكر باختصار. ففي الإسكندرية أولا تمكنوا بفضل الاضطرابات التي كانت سائدة في مصر والصراع بين الولاة الذين عينهم هناك الخلفاء العباسيون من تكوين ما يمكن أن يشبه بجمهورية صغيرة وذلك بمساعدة العرب اللخميين حول الإسكندرية ودعاة الإصلاح الديني ممن سموا أنفسهم بالمتصوفة وحاول الإسكندريون التخلص من سلطانهم ولكنهم فشلوا وتمكن الأندلسيين من السيطرة على المدينة حوالي عشر سنوات. وتطلب الأمر في النهاية حضور القائد عبد الله بن ظاهر بنفسه ومحاصرتهم في صفر 212 هـ (مايو 827 م)، وفي بحر عدة أيام استسلم مسلمي إسبانيا واضطروا إلى التعهد بالجلاء عن الإسكندرية على ألا يستصحبوا معهم أحدا من عبيدهم وألا يحاولوا النزول في أي ميناء من الممتلكات العباسية. وهكذا طرد الأندلسيون من مصر فقرروا النزول في جزيرة كريت التابعة للإمبراطورية البيزنطية. وتحت رئاسة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي - قرطبي أصله من جهة فحص البلوط نزلوا في الجزيرة ونجحوا في احتلالها كلية. وهناك كون أبو حفص البلوطي أسرة مالكة، وظل حفدته في كريت حتى 961 م، هذا الوقت وبعد عدة محاولات فاشلة من جهة البيزنطيين، نجح القائد والباسيليوس في المستقبل نقفور فوقاس Nicephore Phocas - كما سنرى - في إعادة غزو الجزيرة لحساب الإمبراطور رومان الثاني Romen II. ومنذ الآن وخلال قرون ونصف تقريبًا استطاع

مسلمي إسبانيا إرهاب البحر المتوسط الشرقي والأوسط باستيلائهم على المراكب التجارية وقيامهم بغارات جزئية في جزائر بحر إيجة.

ثورة أهل ماردة

عاود بربر ماردة الثورة في عصر الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) قد ثار أهل مدينة ماردة 213 هـ (827 - 828 م)، وكانت ماردة تضم إخلاطًا شتى من السكان منهم المولدون والمستعربون وطائفة كبرى من البربر كانت تنزل بنواحي ماردة وإقليم غرب الأندلس وكانت ماردة بحكم وقوعها على مقربة من مملكة أشتوريش المسيحية تتلقى تعضيدًا وتأييدا من هذه المملكة الإسبانية للثورة ضد حكومة قرطبة. فقد كان الملك ألفونسو الثاني المعروف بالعفيف Alfonso II el casto (175 - 227 هـ/ 791 - 842 م) يشجع سكان غرب إسبانيا من المولدين والمستعربين والبربر على الثورة ضد الأمير الأموي. ومن الثابت أيضًا أن الملك الكارولنجي لويس التقى (198 - 225هـ/ 814 - 840 م) قدم نفس التشجيع في رسائله إلى مستعربي ماردة. وقد تزعم الثورة في ماردة كل من البربري محمود بن عبد الجبار بن راحلة وهو من بني طريف من بربر مصمودة المستقرين بحصن أشونة من كورة استجة، وسليمان بن مارتين المولد وانضم إليهم النصارى المستعربون وأقدموا على قتل مروان الجليقي العامل على ماردة، وعلى أثر ذلك سير الأمير عبد الرحمن بن الحكم جيشًا من قرطبة حاصر مدينة ماردة، 214 هـ (829 م) ولكن هذا الحصار كان موسميًا مؤقتًا، ولهذا كان قليل الفائدة، فتوالت الحملات العسكرية الأموية على ماردة حتى تمكنت من إخماد ثورتها. وحتى يضمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم طاعتها، أمر جنده بتخريب سور المدينة الحصينة، ونقل حجارة السور إلى نهر وادي آنه حتى لا يعود سكان ماردة إلى

الثورة. ولكن ما كادت القوات الأموية تنسحب إلى قرطبة حتى عادت المدينة إلى الثورة، وجددوا بناء السور وأتقنوه، فعادت الحملات العسكرية مرة أخرى تتردد على ماردة حتى عام 218 هـ (833 م) حينما زحف إليها الأمير عبد الرحمن بن الحكم بنفسه، فهرب زعيما الثورة، فتحصن سليمان بن مارتين زعيم المولدين في حصن يدعي شنت أقروج Santa Cruz de Sierra على مقربة من مدينة ترجالة Trujilla ونجح الأمير عبد الرحمن بن الحكم عام 220 هـ (835 م) في محاصرته وضيق عليه، فلما حاول الفرار ليلا، انزلق بجواده على صخرة ملساء، فوقع ميتًا وبذلك تخلص الأمير الأموي من زعيم الثورة المولد. وقد سجل عبد الرحمن الأوسط إخضاعه لثورة ماردة، ببنائه قصبتها التي تعرف اليوم لدى العامة بالدير، وبها نقش عربي محفوظ اليوم بمتحف القصبة يحمل تاريخ 220 هـ (835 م).

بطلميوس Badioz مدينة في غرب إسبانيا تقع على ضفة وادي آنة Guadiana وكانت قديمًا من أعمال ماردة في غرب الأندلس. وهي الآن عاصمة المقاطعة التي تسمى Extremadura وهي التي كان العرب يطلقون عليها اسم الجوف. وبطلميوس من بناء الأمير عبد الرحمن بن مروان الجليقي وكانت في أيام ملوك الطوائف عاصمة لبني الأفطس الذين بنوا فيها المباني الفخمة وقد خصها ابن سعيد المغربي بجزء من كتابة المغرب في حلي المغرب سماه ألفونسو في حلي مملكة بطلميوس وينسب إليها عدد من العلماء والشعراء كأبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي النحوي اللغوي المتوفي 521 هـ، والأديب المشهور ابن عبدون وزير بني الأفطس المتوفي 520 هـ.

باجة Beja مدينة قديمة كانت تعرف في العصر الروماني باسم Paxjulia، ثم تحول الاسم في العصر الإسلامي إلى باجة. وقد وصفها

الإدريسي بقوله. وهي في غاية الحسن لكثرة مياهها والماء يشق بلدها وعليه الأرحاء داخل الخصيب والرخاء، كما وصفها صاحب الروض المعطار بقوله: ومدينة باجة أقدم مدن الأندلس بنيانًا وأولها اختطاطًا، وإليها انتهى يوليش القيصر وهو الذي سماه باجة وتفسير باجة في كلام العجم الصلح. أما محمود بن عبد الجبار زعيم الثورة البربري فقد تحصن في منت شلوط Monsalud على مقربة من مدينة بطلميوس وقرر الزحف بجموعه تعاونه أخته جميلة - وكانت فارسة بارعة الحسن، اشتهرت يومئذ في جميع أنحاء الأندلس بروعة جمالها، كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية ولقاء الفرسان ومبارزتهم - لمهاجمة مدن الغرب المجاور مثل باجة، فقاتل أهلها، وتغلب عليهم وبسط سلطانه على باجة فلما تمادى في عيثه واستطال شره لم يتردد الأمير عبد الرحمن الأوسط في وضع حد لعيثه، فبادر بإرسال الحملات تباعًا إلى مناطق نفوذه وأرغمه في النهاية على اللجوء 223 هـ (838م) إلى جليقية مع أخته جميلة وصحبه، ومن هناك كتب إلى الملك ألفونسو الثاني ملك جليقية واشتوريش طالبًا منه أن يأويه في بلاده، فرحب به وأكرم وفادته ومنحه حصنًا على الحدود إقطاعًا له اتخذه قاعدة يشن منها الغارات على الأراضي الإسلامية لمدة خمسة أعوام وثلاثة أشهر. ولكن الندم أدركه بعد ذلك فكتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط يطلب لنفسه الأمان ويعده بالعودة إلى بلاده، ويبدو أن الأمير قبل توبته وغضب ألفونسو الثاني عندما علم لأمر تلك المكاتبات والاتصالات، ونقدم عليه ويبدو أنه أراد أن يتخلص منه، فتظاهر بمودته له ودعاه للحضور إلى بلاطه، وعندما اعتذر محمود بن عبد الجبار بحجة مرضه، اقتنع ألفونسو الثاني بصدق مكاتباته واتصالاته، وخشي أن أفلت الثائر البربري منه أن ينقلب حربًا عليه، فسار إليه بنفسه، وأحاطت به الجند من كل ناحية، ودافع الزعيم البربري عن نفسه دفاع

الأبطال ولكنه قتل أخيرًا، إذ جمح به فرسه في الحرب وصدم بشجرة بلوط فمات، وبقى مجندلا في الأرض حينًا وفرسان النصارى على ربوة بالقرب منه يهابون الدنو منه خوفًا أن تكون حيلة منه، وكان ذلك في شهر رجب 226 هـ (مايو 840 م). أما أخته جميلة فقد وقعت في الأسر وأرغمت على الزواج من أحد قوامسة جليقية الذي حملها على اعتناق المسيحية، وأنجبت منها ولدًا أصبح فيما بعد أسقفًا لمدينة شنت ياقب Santiago de compostela كبرى كنائس إسبانيا المسيحية.

ثورة مدينة تاكرنا الثانية:

كانت مدينة تاكرنا من أهم مراكز الثورة البربرية في إسبانيا ضد الحكومة المركزية فكان أهلها يجنحون دائمًا إلى الثورة ولا يطيقون الخضوع لسلطان بني أمية ففي 211 هـ (826 م) أعلن أحد زعماء البربر ويدعى طوريل البربري الثورة في تاكرنا، فسير إليه الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشًا يقوده معاوية ابن غانم فظفر به وأخمد ثورته. ينتسب بنو غانم إلى عبد الحميد بن غانم، وكان مولى لعبد الرحمن بن معاوية الداخل ومن كبار رجال دولته، وقد أهداه عبد الرحمن الداخل جارية له تسمى كلثم كانت للداخل ثم وقعت في أسر أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهري عند هجومه على قرطبة أثناء الحرب الدائرة بين عبد الرحمن الداخل ويوسف الفهري فلما استنقذها الأمير عبد الرحمن، كرهها وأهداها إلى عبد الحميد بن غانم وهي أم ولده عبد الرحمن. وقد شغل أفراد هذه الأسرة الكثر من المناصب العسكرية والإدارية طوال عصر الإمارة الأموية في إسبانيا. وفي 235 هـ (849 م) عاود أهل تاكرنا الثورة، فسير إليهم الأمير عبد الرحمن بن الحكم جيشًا قاتلهم به، وألحق بهم الهزيمة.

ثورة البربر في الجزيرة الخضراء:

شاركت الجزيرة الخضراء بدورها في التمرد والثورة البربرية، ففي عام 236 هـ (850 م) ثار أحد زعماء البربر ويدعى حبيب البرنسي بجبال الجزيرة الخضراء، واجتمع إليه الكثير من أهل الشر والفساد، فشن بهم الغارة على قرى رية وما حولها وعاث فسادًا في نواحيها فخرب عمرانها وانتهت ثرواتها وأقدم على قتل كثير من أهلها فسير إليهم الأمير عبد الرحمن بن الحكم جيشًا بقيادة عباس بن مضا، فلما وصل إلى الجزيرة الخضراء لقتال حبيب البرنسي سبقته إليه العناصر البربرية المناوئة له والتي كانت تستهجن اصطناعه للعنف والقتل والنهب والسلب أسلوبًا ينتهجه في غاراته، ولم تتردد هذه العناصر في محاصرته في معقله وتمكنوا من التغلب عليه وأرغموه على الخروج عنه، وقتلوا الكثير من رجاله بينما فر الباقون، ولكنهم لم يظفروا بحبيب البرنسي، إذ اختفى تماما عن الأنظار فكتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم إلى عماله على مختلف كور الأندلس يأمرهم بالقبض عليه ولكنه لم يظفر به. كورة رية هي الإقليم الذي أصبحت مدينة مالقة Malaga عاصمته في جنوب شرق شبه الجزيرة، وكلمة رية مأخوذة من اللاتينية Rego أي الملكية، وكانت منزلا لجند الأردن عندما تم توزيع الجند الشاميين، وقد استقل بها عمر بن حفصون وبنوه إلى أن دخلت في طاعة الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم فقدت بالتدريج أهميتها إلى أن اختفت في عصر الطوائف.

دور البربر في ثورة مدينة طليطلة:

شغل الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط منذ اليوم الأول من توليه إمارة في إسبانيا في الرابع من ربيع الثاني 238 هـ (الثالث والعشرين من سبتمبر 852 م) بمواجهة ثورة أهل طليطلة الذين كانوا يؤلفون شوكة في جانب

الإمارة بثوراتهم المتواصلة حتى عادوا عصيانهم وجنحوا إلى الثورة والعصيان ولم يكتف أهل طليطلة هذه المرة بالانفراد وحدهم بالثورة بل أشركوا معهم بربر البرانس من سكان طليطلة وينفرد ابن حيان بالإشارة إلى تلك المشاركة البربرية بقوله: واشترك مع أهل طليطلة في هذه الثورة البرانس البربر فكثر جمعهم وسعروا البلاد حولهم. وكانت أخبار وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط قد وصلت إلى طليطلة في اليوم الثالث من وفاته، وكان بها يومئذ ابنه سعيد بن عبد الرحمن وعاملها حارث بن بزيع، فانتهز أهل طليطلة هذه الفرصة وأعلنوا الثورة يوم السبت الرابع عشر من ربيع الثاني 238 هـ (الثالث من أكتوبر 852 م)، ولما عجز الجند الأمويون عن إخماد الثورة، فتحوا لأميرهم باب القنطرة ومكنوه من الفرار، بينما وقع عاملها حارث بن بزيع أسيرًا في أيدي الثوار، الذين اشترطوا لإطلاق سراحه أن يطلق الأمير محمد ابن عبد الرحمن الأوسط سراح رهائنهم في قرطبة.

واصل أهل طليطلة ثوراتهم طوال عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن ففي عام 259 هـ (873 م) لم يتردد البربر في المشاركة في أحداث الثورة الطليطلية، ولم يقف الأمير محمد مكتوف اليدين أمام الثورة فخرج في هذا العام نفسه على رأس حملة إلى طليطلة لاستنزالهم فحاصروها في شعبان من نفس العام وقاتله أهلها قتالا عنيفًا، حتى إذا ما اشتد عليهم الحصار استأمنوه، فعقد لهم الأمان، وأخذ هائنهم، وخيرهم فيمن يوليه عليهم من زعمائهم، فاختلفوا فيما بينهم، فاختار بعضهم مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب المولد، بينما اتفق البعض الآخر على توليه طربيشه بن ماسونة وقيل ماسوية المولد، فشاور الأمير محمد وزراءه، فاشاروا عليه بتوليهما معًا وتقسيم مدينة طليطلة بينهما إلى قسمين متساويين، ولكن سرعان ما تطلع كل زعيم منهما للسيطرة على القسم الثاني والانفراد بملك طليطلة، إلا أن الداعين

لتولية طربيشة نجحوا أخيرًا في فرض زعامته على المدينة وأقاليمها وللانتقام من طربيشة انتهز مطرف بن حبيب فرصة خروج أهل طليطلة مع طربيشة ومطرف إلى حصن سكتان الذي كان يضم حامية ضخمة تتألف من سبعمائة من البربر كانوا قد أعلنوا تأييدهم لموسى بن ذي النون الهواري الثائر بشنت برية وكثيرًا ما كانوا يغيرون على مدينة طليطلة ويلحقون الأذى بأهلها لذلك صمم أهل طليطلة على الخروج إليهم ليضعوا نهاية لخطر هؤلاء البربر عليهم. وعلى الرغم من أن حصن سكتان لم يكن يضم سوى سبعمائة من البربر وكان أهل طليطلة في عشرة آلاف، إلا أنه عندما التحم الجمعان انتقم مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب من منافسه طربيشة، فانهزم بأنصاره أمام البربر، فتبعه جميع أهل طليطلة وانتصر بربر حصن سكتان على أهل طليطلة وقتلوا منهم عددًا كبيرًا[1].

حصن سكتان كان يقع في شمال غرب طلبيرة، يبدو أنه تحول فيما بعد إلى مدينة آهلة بالسكان كانت تدعي سكتان القديمة . إذ يروي ابن حيان في حوادث عام 329هـ (941م) ويتفق معه ابن عذارى خبرًا يقول فيه أن القائد أحمد بن إلياس استتم بناء مدينة سكتان وشحنها بالرجال، فأخرج الخليفة عبد الرحمن الناصر إليها القائد أحمد بن يعلي قائدًا.

ثورة ابن يامين البربري:

ينفرد ابن حيان في سياق تأريخه لحوادث عام 259 هـ (873 م) بالإشارة إلى تمرد أحد زعماء البربر ويدعى ابن يامين البربري وامتناعه بجبل البرانس، وأن مسعود بن عبد الله العريف قائد طلبيرة أمر ابن حارث عامله على قلعة رباح بإخماد ثورة ابن يامين البربري وإلقاء القبض عليه وتسليمه للأمير محمد

---

(1) د. حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 44.

بن عبد الرحمن، فلما جاء الأمير محمد إلى لطبيرة، أمر بصلب ابن يامين البربري وأصحابه على سور طليطلة. جبال البرانس هي السلسلة الجبلية الممتدة من شمال قرطبة إلى جنوبي وادي آنة، وقد عرفت هذه السلسلة باسم جبل المعدن وتسمى اليوم سييراامورينا Sierra Moreno. قلعة رباح Calatrava مدينة تابعة لطليطلة في التقسيم الإداري لإسبانيا الإسلامية، وتوصف بأنها مع مدينة طلبيرة تمثل - حد فاصل بين أرض النصارى وأرض المسلمين. ويحددها الرازي بأنها شمال شرق قرطبة وجنوبي طليطلة، وأنها تقع على وادي آنة وأغلب الظن أناها سميت باسم التابعي علي بن رباح اللخمي الذي اشترك في فتح إسبانيا، وقد أمر الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بتحصين قلعة رباح والزيادة في مبانيها ونقل الناس إليها. وسقطت قلعة رباح في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة مع مدينة طليطلة ثم استعادها الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور بعد انتصاره في وقعة الأرك 591 هـ (1195 م)، وأمر المنصور بتطهير جامعها الذي كان قد حول إلى كنيسة وقدم على حاميتها يوسف بن قادس ثم سقطت نهائيًا وخرجت عن حوزة المسلمين عندما استولى عليها ألفونسو الثامن ملك قشتالة 609 هـ (1212 م) في أعقاب هزيمة محمد الناصر في موقعة العقاب.

ثورة أهل تاكرنا الثالثة:

وفي 261 هـ (874 م) عاود أهل تاكرنا البربر الثورة وتزعمهم رجل منهم يدعى أسد بن الحارث نافع، فسير إليهم الأمير محمد بن عبد الرحمن جيشًا قاتلهم وتمكن من إخماد ثورتهم وأرغمهم على الدخول في طاعته.

ثورة محمد بن تاجيت:

أشرنا فيما سبق أن البربر كانوا يمثلون جمهرة كبيرة من سكان غرب الأندلس. وكانت كورة ماردة على وجه الخصوص من أكثر تلك المناطق ازدحامًا بهم إبان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ذلك أنه بالإضافة إلى العناصر البربرية التي استقرت فيها، منذ الفتح الإسلامي فقد نزح بربر الماطق الشمالية من لجدانية. أن لجدناية ينبغي أن تكون لوزينانيا Lusitania التي كانت في عهد الرومان تطلق على جميع المقاطعة الغربية من شبه الجزيرة أي التي تقابل اليوم دولة البرتغال وأجزاء من مقاطعة استرمادورا Extremadura الواقعة في غرب إسبانيا، ويمضي قائلا ولعلنا لا تبعد عن الصواب أن قلنا إن لجدانية ربما كانت هي البلدة البرتغالية التي تدعى الآن (إيدانيا القديمة Idanha A Velha) وهي تتبع الآن مركز الحصن الأبيض Castelo Blanco في المنطقة الوسطى من البرتغال. وقورية إليها بعد مضايقة النصارى المجاورين لهم. وكان معظم هؤلاء النازحين من بربر البرانس مع أميرهم محمد بن تاجيت بن مناع بن مسعود بن الفرج بن راشد المصمودي، وكانت أسرته تتوارث حكم قورية ولجدانية، فتلقاهم الوزير القائد هاشم بن عبد العزيز حينما كان غازيًا في غرب إسبانيا 262 هـ (875 م) وسر بقدومهم وأنزلهم في أقاليم ماردة على المولدين، فغلبوهم على قرارهم، ونزلوا بيوتهم وركبوهم بكل عظيمة. هو أبو خالد بن هاشم بن عبد العزيز أبرز وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن إذ كان يؤثره بالوزارة ويرشحه مع بنيه للقيادة والإمارة، وهو أحد رجالات الموالي المروانية بإسبانيا ويصفه ابن الأبار بقوله: «اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في سواه من أهل زمانه، إلى ما كانت عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة وقرض الأشعار البديعة، إلى ماله من القديم والبيت والسابقة. فلو لم يعنه سلفه لنهضت به أدواته هذه

الرفيعة «فلما توفى الأمير محمد بن عبد الرحمن وتولى الإمارة ابنه المنذر بن محمد ولي هاشم بن عبد العزيز الحجابة ثم سرعان ما انقلب عليه وأمر بالقبض عليه وقتله.

استقر محمد بن تاجيت بقبيلته مصمودة في أقاليم ماردة، فلما ضعفت الأوضاع الأمنية في المنطقة على أثر هبوب رياح الفتنة في غرب الأندلس أدلى بدلوه مع الثورة وأعلن عصيانه على الأمير محمد، وزحف بقبيلته إلى ماردة وبها يومئذ جند من العرب وجمهور من قبيلة كتامة، فما زال يعمل الحيلة على إخراجهم منها، ثم نزلها هو وقومه مصمودة. ولما سيطر محمد بن تاجيت على ماردة، زجفت إليه جيوش الإمارة الأموية من قرطبة فتحالف ابن تاجيت مع عبد الرحمن بن مروان الجليقي صاحب بطليوس وجاءه الأخي مددًا له، فحاصرتها الجيوش الأموية في ماردة أشهرًا، ولما عجزت عن إخضاعها عادت إلى قرطبة. لم يلبث الخلاف أن ثار بين ابن تاجيت وحليفه ابن مروان الجليقي واندلعت الحروب بينهما، فلم يوفق فيهما ابن تاجيت إذ ألحق به ابن مروان هزائم متتالية كان آخرها في لقنت Fuente del Canta فاستغاث ابن تاجيت بسعدون السرنباقي صاحب قلنبرية Coimbra ولكن السرنباقي لم يمد له يد العون والمساعدة. ظل العداء قائمًا بين ابن تاجيت وحليفه السابق ابن مروان الجليقي عدة سنوات، فلما توفى ابن مروان الجليقي في أوائل عهد الأمير عبد الله بن محمد ترسم انبه مروان خطاه في معاداة البربر المجاورين له ولكنه لم يعش سوى شهرين، ففقدت أسرة الجليقي بعده الحكم مؤقتًا في بطليوس، إذ عقد الأمير عبد الله بن محمد على بطليوس لأميرين من العرب، بينما لحق من بقي من أسرة عبد الرحمن الجليقي بحصن شونة، وفي نفس الوقت دب الخلاف بين الأميرين العربيين وقتل أحدهما الآخر واستقل ببطليوس، ولكن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الجليقي

تمكن من قتل هـذا الأمير العـربي وأعاد السلطة لأسرتـه في بطليوس 286 هـ (899 م).

وواصل عبد الله بن محمد بن عبد الـرحمن الجليقي حروبه ضد محمد ابن تاجيت حـتى انعقد الصلح بينهـما، بيد أن الخـلاف ما لبث أن نشب من جديد بينهما ثـم استمر الوضع على ذلك حتى انتهت دولة الأمـير عبد الله. أما عن عـلاقة محـمد بن تاجيت بالسلطة المركـزية في قرطبة، فـإن المصادر التاريخـية لم تشر إلى أن الإمارة الأمـوية وجهت نحوه أي حمـلات عسكرية طوال عـصر الأمـير عـبد الله، إلا أن ابن خلدون يشـير إلى أن مـحمـد بن تاجيت أعلن دخوله في طاعة الإمارة الأموية بعد عام 286 هـ (899 م) وذلك عقب الصلح الذي تم بينه وبين عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الجليقي. وظل بنو تاجـيت يحكمون مـاردة بعد وفاة مـحمـد بن تاجيت، فـقد تولى تاجيت ثم حفيده مسعود بن تاجيت. ومن المرجح أن ماردة عاودت الثورة في أواخر عصـر الأمير عبد الله، أو أنها ظلت تـمتع بنوع من الحكم الذاتي في إطار التبـعية للدولة الأموية يؤكـد ذلك ما رواه ابن حيان في تـأرخه لحوادث عام 316 هـ (928 م) من افتتاح عبد الرحـمن الناصر لماردة. وكان الناصر قد سير جيشًـا صوب مدينة ماردة أسند قيادته إلى الوزير القائد أحـمد بن محمد ابن إلياس. ينسب أحمد بن محمد بن إليـاس إلى قبيلة مغلية البربرية، وكان جده إلياس أحد قواد البربر البارزين الذين دخلوا الأندلس مع جيش طارق بن زياد. أما عن أحمد، فـقد التحق بخدمة الخليفة عـبد الرحمن الناصر وتدرج في المناصب القيادية حـتى عينه قائدًا على الجزائر الشرقيـة في شعبان 318 هـ (930 م)، وفي رجب 322 هـ (934 م) عين واليًا على مـدينة طرسونة، وفي العام التالي (323 هـ/ 935 م) عين واليًا على مـدينة وشقة وشـارك في عام 324 هـ (936 م) في محاربة صاحب برشلونة وتمكن من إلحاق الهزيمة به على

ضفاف نهر أبره، وقد ولاه الناصر الوزارة عقب هذا الانتصار الكبير ويبدو أنه عين قائدًا لبطليوس بعد ذلك فقد أمره الناصر في 326 هـ (938 م) أن يغزو أرض العدو، فسار إلى ليون واشتبك مع الجلالقة في معركة عنيفة أحرز فيها النصر عليهم. وفي عام 328 هـ (940 م) خرج أحمد بن محمد بن إلياس غازيًا بالصائفة إلى أرض جليقية، وفي هذه الغزوة شرع ابن إلياس في ابتناء قلعة خليفة بثغر طليطلة وتحصينها، وشحنها بالمقاتلة. ومما يؤكد المكانة الكبيرة التي تمتع بها ابن إلياس في عصر الناصر، أن الخليفة عزل 329 هـ (941 م) جميع وزراءه فيما عدا أحمد بن عبد الملك بن شهيد وأحمد بن محمد بن إلياس. فقصد أولا حصن الحنش من أعمال ماردة، وكان أهل ماردة قد أمدوا أهل هذا الحصن بإمدادات من الخيل، ولكن ابن إلياس تمكن من التغلب عليهم. واستولى على الحصن. فلما تسامع أهل ماردة بما لحق بأهل حصن الحنش اجتمعوا مع أميرهم مسعود بن تاجيت وقرروا الاعتصام بالطاعة وإعلان الولاء للحكومة المركزية في قرطبة، ووقع اختيار أهل ماردة على رجل بربري منهم يدعى ابن منذر وكان معروفًا بمكره ودهائه وتفقهه في أمور الدين فضلا عن صداقته للحاجب موسى بن محمد بن حدير.

ينتسب بنو حدير إلى جدهم الأكبر حدير الذي كان بوابًا على باب السدة بقصر الإمارة في قرطبة على أيام الأمير الحكم بن هشام (الربضي) وحينما نشبت ثورة الربض في 202 هـ (818 م) رفض حدير هذا أن يصدع بأمر الحكم بن هشام حينما كلفه بضرب رقاب الفقهاء الثائرين وقال له: «والله يا مولاي أني لأكره لك ولنفسي أن أكون غدًا وأنت في زاوية من زوايا جهنم تهر إلي واهر إليك لا تنفعني ولا أنفعك، فانتهز الحكم وعزم عليه في إنقاذ ذلك، فرفض، فأمر بإخراجه وإدخال ابن نادر البواب صاحبه، فنقذ ما أمره به الحكم بن هشام. أما أشهر أفراد هذه الأسرة فهو أبو الأصبغ موسى

بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير الذي ولاه الأمير عبد الله على المدينة 293 هـ (905 – 906 م) وظل يشغلها إلى أن تولى الخليفة عبد الرحمن الناصر، فأبقاه عليها ثم استوزره. وفي 302 هـ (914 م) عزل موسى عن ولاية المدينة وظل يحتفظ بمنصب الوزارة إلى شهر رجب 309 هـ (921 م) حينما توفى الحاجب بدر بن أحمد، فولي الناصر موسى بن حدير الحجابة مكانه وظل يشغل هذه الوظيفة إلى أن توفى في شهر صفر 320 هـ (932 م).
واتفقوا على إرساله إلى قرطبة في رفقة أربعة من زعمائهم تعبيراً عن خضوعهم للخليفة عبد الرحمن الناصر وبذلهم الطاعة له فلما وصل ابن منذر إلى قرطبة أسرع للقاء الحاجب موسى بن محمد بن حدير، واتفق معه على أخذ الأمان لأهل ماردة ولأميرهم محمد بن تاجيت على شروط اشترطوها، من بينها أن يتولى ابن منذر قضاء ماردة فأجابه السلطان إلى ذلك وعقده على نفسه وأوصل إليه ابن منذر وافدهم، فرفع منزلته وأحمد وساطته واستقضاه على ماردة وكساه ووصله. عاد ابن منذر إلى أهل ماردة يحمل كتب الأمان من الناصر إليهم فسروا بذلك غاية السرور، ثم أرسلوا ابن منذر مرة أخرى بعد عدة أيام للقاء الناصر وإعلامه بوصول كتبه إليهم ويعبروا عن شكرهم لما كان من إحسانه فيهم وبإقراره لهم على ما في أيديهم، وإلحاقه بفرسانهم في ديوانه، كما طلبوا منه أن يبعث من قبله عاملا يتسلم ولاية ماردة من مسعود بن تاجيت الذي قرر الوفود إليه في قرطبة، فتأكد الناصر من حسن طاعتهم وأسند ولاية مدينتهم إلى عبد الملك بن العاص، فوصلهم في اليوم الثالث على رأس حامية كبيرة معظمهم من البربر، فدخل عبد الملك ماردة، وضبط قصبتها، وأعلن أهلها طاعتهم لعبد الرحمن الناصر، بينما سار مسعود بن تاجيت وأهله إلى قرطبة فصار في المصاف على توسعة من الرزق والنزول والمنازل والجاه واستقرت به الدار[1].

---

(1) د. حمدي عبد المنعم محمد حسين، نفس المرجع، ص 54.

عصر الأمير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

لم تمض عـدة سنوات على هزيمة أهل طلـيطلة على أيدي بربر حـصن سكتان 259 هـ (873 م) حتى قاموا بالثورة من جديد وكـان الأمير محمد بن عبد الـرحمن قد توفى في التاسع والعـشرين من شهر صـفر 273 هـ (أوائل أغسطس 886 م) وخلفه ابنه المنذر الذي افتـتح عهده بحملة عسكرية وجـهها إلى مدينة طليطلة. وكـانت جماعة كـبيرة من بربر ترجـيلة قد لاذوا بطليطلة وحرضوا أهلها على الثورة، فلما اشتبكت قوات الأمير المنذر مع أهل طليطلة وحلفـائهم من البربر، انهـزم الثـوار هزيمة نكراء وسقط منهم عـدة آلاف من القتلى.

عصر الأمير عبد الله بن محمد

1 - بنو موسى بن ذي النون بكورة شنترية

منذ وقت مبكر من تاريخ المسلمين في إسبانيا استقرت جماعات مختلفة من البربر في كـورة شنتبرية، ولذلك فلا عجب أن تكـون هذه الكورة مركزًا هامًا للعناصر البربرية. ويعـد بنو ذي النون من أشهر هؤلاء السكان البربر في القرن الثالث الهجري/ القرن التاسع الميلادي. وينتسب بنو ذي النون إلى ذي النون بن سليمـان بن طوريل بن الهيـثم بن إسماعـيل بن السمح بن ورد بن حـيـقن وهم من قـبيلـة هوارة البربـرية وكان أول مـن دخل الأندلس منهم إسمـاعيل بن السـميح بصحـبة طارق بن زياد ونزل بقـرية أقاقلة من أعـمال شنتـبرية، ولم يخض بنوه وذراريـه في أي نشاط سـياسي إلى أن ظهـر منهم على مسرح الأحداث ذو النون بن سليمان في عصر الأمـيز محمد، فقد كان زعيمًـا لشنتبرية واتفق إن مر الأميـر محمد بن عبـد الرحمن ببلدة في بعض غزواته وقد مرض له خـصي من أكابر فتيانه الصقالبـة، فتركه عند ذي النون

يقدم برعايته، فقام ذو النون بهذه المهمة خير قيام، وبالغ في الاهتمام بالفتى إلى أن برأ من علته، ولم يكتف بذلك بل جاء بنفسه إلى قرطبة بصحبة الفتى، فكافأه الأمير محمد بأن أمره على ناحيته وقدمه على قومه وارتهن معه موسى ولده، فاعترف ذو النون بفضل الأمير عليه وشكر نعمته وظل متواليًا له يبذل له للطاعة إلى أن توفى فولى الأمير مكانه ابنه أبا الجوشن الذي توفى سريعًا، فآلت الزعامة على بربر شنتبرية لأخيه موسى بن ذي النون الذي كان رهينة عند الأمير محمد. بدأ موسى بن ذي النون تمرده على الدولة الأموية على أيام الأمير محمد عبد الرحمن، ومن مظاهر ذلك ما ذكره ابن حزم إقدامه على قتل عامر بن وهب صاحب وبذه، واستيلائه عليه، وما يذكره ابن حيان من إعلان بربر حصن سكتان الذي كان يضم حامية ضخمة تتألف من سبعمائة من البربر تأييدهم لموسى بن ذي النون الهواري 259 هـ (873 م) كما أن موسى هاجم مدينة طليطلة 260 هـ (874 م) رغم أن أهلها وقتئذ كانوا قد أعلنوا الولاء والطاعة للإمارة الأموية. انتهز موسى بن ذي النون فرصة انتشار الفتنة في الأندلس في أواخر أيام الأمير المنذر، فغزا طليطلة بجيش كبير عدته عشرون ألفًا وكان أمير طليطلة وقتئذ لب بن طربيشة، فتواطأ مع موسى بن ذي النون على الإيقاع بأهل طليطلة، إذا كان يحقد عليهم لما أصاب أباه في وقعة حصن سكتان، فلما اشتعلت الحرب في غرة شوال 274 هـ (الثامن عشر من فبراير سنة 888م) وحمى وطيسها بين الطرفين، انسحب لب بن طربيشة بأصحابه متظاهرًا بالهزيمة فانهزم عسكر طليطلة ووضع فيهم موسى بن ذي النون السيف.

ولم يستمر خضوع طليطلة لبني ذي النون فترة طويلة، إذ غلبهم عليها محمد بن لب بن موسى القسوي الذي استدعاه أهلها فدخلها في ذي الحجة 283 هـ (يناير 897 م) واستخلف عليها ابنه لب بن محمد، ثم قتل لب بن

محمـد في عام 285 هـ (899 م)، فخرجت طليطلة عـن طاعة بني قسي إلى حين، ففي عام 290 هـ (903 م) استدعى مطرف بن عبـد الرحمن بن حبيب ويحيى بن قطام شيخا طليطلة لب بن محمد بن لب بن موسى القسوي الذي كان قد خلف أبـاه على الثغر الأعلى إلى دخول طليطلة فـبعث معهـما أخاه المطرف بن محمد، فدخل طليطلة في الثالث والعشرين من ذي الحجة 290 هـ (السابع عشر مـن نوفمبر 903 م) وظل يتولاها إلى أن خرج عليـه محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عـمومته، فحكم طليطلة منذ ذلك الحين إلى أن قتله أهلهـا في عام 293 هـ (906 م)، وولوا عليهم لب بن طربيـشة الحليف السابق لموسى بن ذي النون. هو محمد بن لب بن موسى بن فرتون القسوي، أنجبـه أبوه من جارية تدعى عجب البـلاطية كان قد أهـداها إليه الأمير عـبد الرحمن الأوسط حينمـا كان بقرطبة رهينة لأبيه، واشـترك في ثورة بني قيس بالثغر الأعلى في 258 هـ (871 م) مع أخوته، فدخل سرقسطة وانتزى بها في هذه السنة ومنع عنها الأمير محمد بـن عبد الرحمن الأوسط حينما غزاها في 259 هـ (872 م) وفي 260 هـ (873 م) غـزا المنذر بن محـمـد الثغـر الأعلى ونازل سرقسطة دون أن يتمكن من فتحها. وفي آخر هذه السنة وأوائل 261هـ (874 م) خرج هاشم بن عبد العزيز إلى الثغـر الأعلى فاستنزل محمد بن لب عن سـرقسطة وابتـاعهـا منه بخـمسـة عشـر ألف دينار على يدي حـوشب القاضـي، وخرج بن لب عن سـرقسطة فـآلت إلى أعمـال الأميـر محـمد وعوضـه الأمير عنهـا بالتسجـيل له على أرنيط Arnedo وطرسونة Tarazona وجريش واستقامت طـاعته، فجدد له الأمير المنذر وأخوه عبـد الله بن محمد على الحصون المذكورة، وأضيفت إليها تطيلة ولاردة وناجرة وبقيرة. وكان من مظاهر إخلاصـه للسلطان أن توجه فـي غزوة إلى ألبه والقـلاع فاقـتحم بلاد النصارى ودوخـها في 273 هـ (886 م) ولكنه لم يلبث أن نكث في أول أيام

الأمير عبد الله. وكـان الأمير محمد بن عبد الرحـمن الأوسط حينما أشجاه أمر بني قسبي قـد نصب بإزائهم بني المهاجر التجيبـيين، فبنى لهم قلعة أيوب ودورقة، وكان يلي سرقسطة في أول أيام الأميـر عبد الله أحد هؤلاء التجيبين وهو محمد بن عبـد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي، فحـسده محمد بن لب ونصب له الحرب مدة من ثمـاني عشرة سنة متوالية، واستـفحل أمر ابن لب حتى أنه عمل على عـقد حلف بينه وبين الثائر عمر بن حـفصون في 285 هـ (898 م) وتواعد الزعيمـان الناكثان على الاجتماع ببـعض أطراف جيان لإتمام المعاقـدة، ولكن محـمد بن لب لم يستطع إنجـاز الموعد لاشـتغاله بمحـاصرة التجيـبي بسرقسطة فبـعث ابنه لب بن محمد نائبًا عنـه، غير أن هذا لم يكد يصل إلى قرب جيـان وافاه الخبر بمصرع والده محمـد بن لب يسرقسطة وهو على حصارها فعاد إلى بلده وخلفه على رياسة الثغر.

أما فيما يتعلق بعـلاقة موسى بن ذي النون بالسلطة المركزية في قرطبة، فإنه على الرغم من استمراره في العـصيان حتى وفاته 295 هـ (907 م) وعلى الرغم من أنه ساعد المتردين على الإمارة الأموية - كما يفهم من ورود أسماء بعض أسرة بني ذي النون ضـمن القتلى في أحداث مـعركة 283 هـ (896 م) التي دارت بين جيش الإمارة وبين أهل حصن ركـوط في كورة تدمير، منطقة تمرد ديسم بن اسحق - على الرغم من كل هذا فإن الإمـارة الأموية لم تبعث إليه حشودًا عـسكرية لإخضاعه، لعل السبب في ذلك أن الأمـير عبد الله بن محـمد رأى أن بني ذي النون لا يشكلون أية أخطار على دولتـه ما دام النزاع مشـتعـلا بينهم وبين أهل طليطلة من جـهة وبينهم وبين بـني قسي من جـهة أخرى.

يصف ابن حـيان ديـسم بن اسحق بقـوله: غلب على مـدينتي لورقـة ومرسية وما يليها من كورة تدمير وكـان عظيم الذكر بعيد الصيت كثير الأتباع

مظاهراً لأهل الخلاف ممدًا لهم في حروبهم وكـانت له غزوات إلى من يخالفه وقواد مشـهورون يخرجهم بخـيله إذا لم يغز وكان مودودًا من طبـقات الناس رفيقًـا برعيته جـوادًا منتجعًا له أفـضال على الشعراء والأدباء فلهم فـيه مديح سائر وكان من أحمدهم لإنتجاعه وأنطقهم بشعره عبيديس بن محمود الشاعر وشعـره فيه كثـير مسـتحسن. توفى مـوسى بن ذي النون في المحرم 295 هـ (907 م) فتوزعت السلطـة في كورة شنتبرية بين أبنائه الثلاثـة: الفتح ويحيى والمطرف. أما الفـتح بن موسى بن ذي النون، فقـد صار حاكمًـا على مدينة أقليش. أقليش Ucles من أعـمال كـورة شنتبـرية إلى الجنوب من ويذه على مسافة ثمانيـة عشر ميلا، وقد تحول هذا الحصن إلى مدينة كبـيرة غدت قاعدة كورة شنتبـرية. ودارت عند حصن أقليش معركة من أشـهر المعارك في تاريخ الصراع بين دولة المرابطين على عصر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ومملكة قشـتالة على عـصر ألفونسـو السادس وذلك 501 هـ (1108 م)، وقد انتهت المعـركة بانتصار جيـوش المرابطين على جيوش ألفونسـو السادس ملك قشتالة وبمصرع ابنه الوحيد وولي عهده شانجه من زوجته زايدة المسلمة. وشيد حصنهـا وامتنع بها، وأخذ يمد نفـوذه إلى المناطق المجاورة فتحـرك إلى كورة جيان وحاول أن ينتـزع حصن ذيمية من عبيد الله بن أمـية بن الشالية. يصف ابن حيان الثائر عبيد الله بن أمية الشـالية بقوله: ملك جبل شمنتان وما يليها من كورة جيان وداخل الحصن المعروف بابن عـمر فجاهر بالخلعان وبسط على أهل الطاعة فحمى حـوزته واستوسع فيما يجاوره فامـتد إلى حصن قسطلونة وغيره واستفحل شره وانطلقت يده فتـبنك النعمة وبنى المباني الفخمة وكان له رجال شجـعان وقواد معروفون يخـرجهم بجيشه لمغاورة من يحـاده وقد غزاه الوزير القائد عبد الملك بن عبد الله بن أميـة بجيش كبير وأوقع به هزيمة فعاد إلى طاعة الإمارة الأمـوية، ولكنه سرعان ما خلع الطاعة مـرة أخرى وتحالف

مع عمر بن حفصون وتوج هذا التحالف فزوج ابنته من جعفر بن عمر بن حفصون، فلما تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد (الناصر) أمر بالقبض عليه وأسكنه مع أسرته في قرطبة ولكنه سرعان ما أعاده مرة أخرى إلى جبل شمنتان ولايته الأولى، فأصلحها وأقام بها إلى أن أعاده الناصر مرة أخرى إلى قرطبة. إلا أن ابن الشالية نجح في إلحاق الهزيمة بالفتح. كما أكثر من غاراته على مدينة طليطلة، إلى أن خرج يومًا على رأس خيل له، فغدر به رجل بربري من أصحابه يعرف بالأقرع كان له ثأر عنده، فطعنه بحربة طعنة قاتلة وذلك 303 هـ (916 م). أما يحيى بن موسى بن ذي النون: «فكان أكثرهم شرًا وأشهمهم نفسًا وأجرأهم على السلطان وألهجهم بالمعصية وأثقلهم وطأة على الرعية وأدومهم على قطع السبيل وإشاعة الفساد في الأرض وسفك الدماء. وقد اتخذ من حصن ولمة وهو أحد الحصون القريبة من حاضرة شنتبرية مقرًا له، وكان حصن ولمة أكبر حصونهم أهبة وعدة وقد تحالف يحيى بن ذي النون مع محمد بن عبد الله البكري الرياحي المعروف بابن أزدبليس المتنتري بحصن ملقون فأخذ ابن أزدبليس يشن الغارات على أهله سكان قلعة رباح الذين أخرجوه عنهم. ولعل تحالف يحيى بن ذي النون مع ابن أزدبليس يدل على أنه لم يعد قانعًا بالتقوقع داخل حصنه أو حتى داخل كورة شنتبرية، بل تطلع إلى الكور الأخرى المجاورة، فتحالفه مع ابن أزدبليس يعني أن نفوذه امتد حتى وادي آنة جنوبًا لوقوع قلعة رباح على وادي آنة. ومن المرجح أن يحيى بن ذي النون تظاهر بإعلان الولاء والطاعة للإمارة الأموية، ومما يؤكد ذلك غدر يحيى بحليفه ابن أزدبليس وإقدامه على قتله وإرسال رأسه إلى الأمير عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) فقام الأخير برفع رأسه على باب السدة في ربيع الآخر 300 هـ (912 م). يعتبر باب السدة الباب الرئيسي لقصر الخلافة بقرطبة، وكان يقع على مقربة من

الرصيف ويعلوه السطح المشرف. ولعل شهرة هذا الباب راجعة إلى كونه مخصصًا لشنق أو صلب الخارجين عن طاعة الدولة وتعليق جثثهم عليه. وقد رد الناصر على هذا الموقف الطيب من جانب يحيى بن ذي النون بتثبيته على ما في يده، ولكن يحيى سرعان ما عاد إلى سياسته القديمة القائمة على السفك والقتل وقطع الطرق واستراب بالناصر لدين الله وامتنع عن الجهاد معه، مما أغضب الناصر، فلما كان الناصر في طريق عودته من إحدى غزاته 312 هـ (924 م) مر على بلاد شنتبرية، فلما وصلت هذه الأنباء إلى يحيى بن ذي النون، خرج خائفًا وتلقى الناصر «معترفًا بذنبه مستقيلا عثرته فأوسعه عفوه». ولم تمض تسع سنوات على ذلك حتي عاود يحيى العصيان والتمرد وخلع الطاعة، فسير إليه عبد الرحمن الناصر جيشًا بقيادة عبد الحميد ابن بسيل الذي نجح في هزيمة يحيى وألقى القبض عليه وأرسله بصحبة أولاده وأهله إلى قرطبة وذلك 321 هـ (933 م)، فصفح عنه الناصر وأجزل له العطاء. ومنذ ذلك الحين ظل يحيى بن ذي النون مخلصًا للناصر يبذل الطاعة والولاء بدليل اشتراكه مع الناصر في غزو سرقسطة 325 هـ (937 م) ووفاته هناك.

ينتسب بنو بسيل إلى بسيل الرومي المعروف بالشيخ. كان مولى لهشام ابن عبد الملك، وقد كان أول من دخل من هذا البيت إلى الأندلس عبد السلام بن بسيل وولديه عبد الواحد ويحيى في أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل). أما عن عبد الحميد بن بسيل فقد ولاه الخليفة الناصر الكتابة 303 هـ (916 م) ثم عزله عنها في العام التالي. وفي 311 هـ (923 م) أرسله الناصر إلى الثغر الأعلى بجيوش كثيفة فدخل مدينة تطيلة وملكها. وفي 313 هـ (925 م) أخرجه الناصر إلى كورة جيان لاستنزال من كان بقي في حصونها من أهل الخلاف والنفاق. وفي المحرم 314 هـ (926 م) أغزاه

الناصر إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بني ذي النون، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة، فقصد عبد الحميد بن بسيل إلى معقلهم شنتبرية واقتحمها وقتل كبيرهم محمد بن ذي النون وعدة أخر من رجالهم، كما افتتح مدينة سرتة من مدنهم، وولي عليها عاملا للناصر وأخضع شنتبرية لطاعة الناصر. وفي نفس العام (314 هـ/ 926 م) سيره الناصر إلى بيشتر لقتال أبناء الثائر الأندلسي عمر بن حفصون، فخرج إليه سليمان بن عمر بن حفصون، فهزمه ابن بسيل وقتله واحتز رأسه وقطع أشلاءه وأرسلها إلى قرطبة. فرفعت على باب السدة من أبواب قصر الخلافة بقرطبة كما أنقذه الناصر من بيشتر إلى كورة شذونى في جيش كثيف، فهدم حصونها المخالفة والخارجة عن الطاعة، وجمع أهلها إلى مدينة قلسانية قصبة كورة شذونة وولي على شذونة عمالا للناصر، كما استنزل من جبال شذونة بعض زعماء التمرد والخلاف وأرسلهم إلى قرطبة وألزمهم سكناها وفي شوال 319 هـ (931 م) ولاه الناصر على المدينة بقرطبة. وفي 321 هـ (933 م) أغزاه الناصر بالصائفة فاتجه إلى مدينة طليطلة ومنها إلى جليقية، وجال في الثغر وأعاد إليه الأمن والطمأنينة، كما بث سراياه في أرض النصارى فغنمت وسلبت وأحرقت ودمرت، ثم عاد إلى شنتبرية واستنزل يحيى بن موسى بن ذي النون وأولاده من معاقلهم وقدم بهم إلى قرطبة. وفي 326 هـ (938 م) أمره الناصر بأن ينضم في قواته إلى القائد أحمد بن محمد بن إلياس، وأن يسيرا معًا لغزو ليون، فصدعا بالأمر ووصلا بقواتهما إلى أرض النصارى وعاشا في جنباتها. أما الابن الثالث المطرف فقد أقطعه موسى بن ذي النون حصن وبذه، فبناه المطرف وحصنه واستقر فيه «فكان أجمل أهل بيته مذهبًا وأقومهم طريقة». ومن المرجح أن المطرف قد أعلن الولاء والطاعة للأمير عبد الرحمن ابن محمد (الناصر) عقب توليه

دست الإمارة الأموية في إسبانيا، يؤكد ذلك قول ابن حيان فاسجل (أي الناصر) له (أي للمطرف) على بلده ورفع من حاله فحضر معه أكثر مغازيه. وقد ظل المطرف على ولائه للأمير عبد الرحمن بن محمد حتى وقع أسيرًا في يد شانجة غرسية الأول (923 - 314هـ/ 905 - 926 م) صاحب بنبلونة وذلك 311 هـ (923 م) ولكنه تمكن من الفرار، ثم اشتراك مع عبد الرحمن الناصر في غزوة الخندق، 327 هـ (939م) فكرم فيه مقامه وازدادت عند الناصر لدين الله منزلته فأسجل له على مدينة الفرج من الثغر الأوسط 328 هـ (940 م) ولم يزل واليًا عليها إلى أن توفي فيها 333 هـ (945 م).

تعتبر معركة الخندق من شهيرات المعارك بين المسلمين والنصارى في إسبانيا، وكان الناصر قد استعد استعدادًا كبيرًا لقتال راميرو الثاني ملك ليون، وتقدم الناصر بجيوشه حيث التقى بجيوش ليون ونبرة عند أسوار بلدة شنت مانقش Simancas. وحدث في هذه المعركة أن عبد الرحمن الناصر جعل القيادة العليا للجيش لقائد من مواليه الصقالبة يسمى نجدة بن حسين، مما أدى إلى تغير نفوس العرب لتقديم الصقالبة عليهم، وإجماعهم على خذلانه فأقسموا على أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند بدء المعركة مما أدى إلى الهزيمة، وتراجع المسلمون فيتساقط الكثير منهم في خندق كان النصارى قد حفروه ولذلك تسمى هذه المعركة بمعركة الخندق.

دور البربر في ثورة إشبيلية:

كان سكان إشبيلية مزيجًا من العرب والمولدين والبربر، فقد استقرت بها أسرات عربية يمنية منذ بداية الفتح الإسلامي أبرزها بنو حجاج وبنو خلدون الحضارمة وبنو الجد وبنو اليحصبي وأسرات من المولدين أشهرهم بنو انجلين وبنو شبرقة وبنو الجريح وإلى جانب العرب والمولدين كان هناك زعماء قريش

ومواليـهم من العرب والبربر. وكان بـنو خلدون أول من رفع لواء الثورة في إشبيليـة ضد الإمارة الأموية، فخـرج زعيمهم كريب بن عـثمان ابن خلدون ودعا قومه العرب اليمنية في إشبيلية إلى الالتفاف حوله، وتحالف مع سليمان بن محمد بن عبد الملك الثائر بكورة شـذونة وعثمان بن عمرون الثائر بكورةر لبلة وببعض زعماء البربر كجنيد بن وهب القرموني من زعماء بربر البرانس. بمعنى أن بني خلدون اليمنية تحالفوا مـع بربر البرانس بلبلة وقرمونة وأمام هذا التحـالف لجأ المولدون والموالي في إشبـيلية إلى التحـالف مع العرب القيسـية والبربر من أهل كورة مورو. أدرك الأمير عبد الله بن محمد خطورة الأوضاع الداخلية فـي إشبيليـة، فقلد ولايتـها رجلا من خـيرة رجالـه هو موسى بن العاص بن عبد الله بن ثعلبة عرف بحزمـه وحسن سيرته، فهدأت الفتنة قليلا إلى أن كريب بن عثمان ابن خلدون - وكان قد غادر الحاضرة عقب فشله في الوقوف أمام التـحالف الضخم من المولدين والعرب القـيسية والبـربر البتر - وحليفه جنيد بن وهب القرموني زعـيم بربر البرانس أغريا بربر ماردة وحصن مدلين بالإغـارة على إشبيليـة لكثرة غنائمهـا وقلة المدافعين عنهـا. فلما علم موسى بن العاص بتلك الاتصالات استنفر أهل إشبيلية وأخرجهم لقتال البربر بقرية طلياطة، وقبل أن يصل إليها كان البربر قد سبـقوه إليها، واجترموا فيها كثيرًا من أعمال القتل وسفك لدماء أهلها واستباحوا أموالهم وسبوا ذراريهم، فسار موسى بن العاص خلفـهم، ونزل بإزائهم على كديه تدعى جبل الزيتون على مسافة تبعد نحو ثلاثة أميال من مـراكز نزول البربر فلما احتشد الفريقان راسل كريب بن عثمان بن خلدون البربر سرًا، يخبرهم بأنه عندما يشتد القتال سيفر معـه ويجر الهزيمة على موسى بن العاص وأهل إشبيليـة فلما بدأ القتال وظهر أن الكفتين متساويتان، انهزم كريب بمن معه إلى قرية وبر من إقليم البر من أعمال إشبـيلية، فانهزم موسى بن العاص وعاد إلى إشـبيلية بينما واصل

البربر الغارات على نواحي إشبيلة وأخيرًا رحلوا عنها، بعد أن امتلأت أيديهم بالغنائم.

إزاء تلك التطورات الخطيرة في إشبيلية، اضطر الأمير عبد الله بن محمد إلى عزل موسى بن العاص عن ولاية إشبيلية وأسندها إلى الحسين بن محمد الموري، الذي ظهر على أيامه رجل بربري يدعى الطماشكة، اتخذ من الطريق بين إشبيلية وقرطبة مجالا رحبًا لعمليات السلب والنهب، فرفع رجل من أهل مدينة استجة يدعى محمد بن غالب إلتماسًا إلى الأمير عبد الله يشأله بناء حصن بقرية شنت طرشي على الطريق بين إشبيلية وقرطبة لتأمين المواصلات بين المدينتين ولمنع الطماشكة وأصحابه من المفسدين من قطع الطريق على الناس، فأجابه الأمير عبد الله بالموافقة، فابتناه، وضم إليه أصحابه من البربر البتر والموالي والمولدين من جميع الكور المجاورة، فذاع صيته بين الناس، فحسده زعماء العرب من بني خلدون وبني حجاج، وقاموا مع حلفائهم بمهاجمة الحصن ليلا ولكنهم فشلوا في اقتحامه لحصانته ويقظة من تحصن فيه، وانتهى الأمر بقتل أحد أفراد بني حجاج، فاستغل زعماء العرب هذا الحادث واتهموا محمد بن غالب بقتله دون ذنب، فأرسل الأمير عبد الله ابنه الأمير محمد إلى إشبيلية ولكنه فشل في إيجاد حل يرضي عرب إشبيلية، وتحالف عبد الله بن حجاج مع جنيد بن وهب القرموني زعيم بربر البرانس وسارا نحو قرمونة ودخلاها وأخرجا عاملها عنها. فلما علم الأمير عبد الله بن محمد بما حدث جمع الوزراء في قصر الإمارة وشاورهم فيما حدث في إشبيلية، فاختلفت أراؤهم، ثم خلا به أحدهم وأشار عليه بقتل محمد بن غالب إرضاء للعرب مع ضمان خروجهم عن قرمونة، فأخذ الأمير عبد الله بهذا الرأي وأسند إلى القائد جعد بن الغافر الخالدي أخي أمية بن عبد الغافر والي إشبيلية تنفيذ هذه المهمة، وبالفعل قام جعد بن عبد الغافر

بقتل محمد بن غالب وهدم حصنه شنت طرشي وطرد من كان فيه، فانسحب عبد الله بن حجاج من قرمونة وأسلمهـا إلى جعد بن عبد الغافر. ولكن عبد الله بن حجاج لم يلبث أن عـاد إلى الثورة واستولى على قرمـونة مرة أخرى وتحالف مع جنيد بن وهب القرموني واشتركا معًا في حكم قرمونة، وهنا لجأ أمية بن عـبد الغافر والي إشبـيلية إلى الحيلة والدس. فسعى إلى الوقـيعة بين الحليفين عبـد الله بن حجاج وابن وهب القرموني، ولم يزل أميـة بهما وثب بن وهب على ابن حجـاج وقتله وانتهب ماله وسـبي أهله وأرسل برأسه إلى أمية بن عبد الغافر. ولم يرد في المصادر التاريخية ما يشير إلى مصير جنيد بن وهب القرموني، وهل تعرض للانتقام مـن جانب بني حجاج الذين أصبحت لهم الزعامة والرئاسة في إشبيلية أم لا، كما لم تشر المصادر التاريخية إلى أي مشاركة للبربر في أحداث إشبيليـة عقب قتل ابن وهب القرموني لعبد الله بن حجاج[1].

ثورة زعال يعيش بن فرانك النفراوي

هو زعال بن يعيش بن فـرانك بن لب بن خالد النفراوي، ثار على أيام الأمير عبد الله بن محمد وانتزى بـحصن أم جعفر. كان لأسرة زعال البربرية الرئاسة والزعامة على هذا الحصن، إذ كان جده فرانك أول من اتخذ من هذه الأسرة أم جـعفـر دار إمارة له، وكان قـبل ذلك يسكن في قرطبـة في المكان المنسوب إليه بربض الرصافة. فاستدعاه قومه بعد اضطراب الأوضاع في غرب الأندلس، فقام بـأمرهم تسعة أعوام، فلمـا توفى بحصن أم جعفـر خلفه ابن عمه عيسى بن قوطي فمكث أميرًا عليهم اثنتى عشرة سنة إلى أن توفى فخلفه ابن عمـه زعال بن يعـيش، وكان زعـال مسـتقلا في هذا الحـصن استـقلالا

(1) د. حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 73

جزئيًا، إذ كان يتصرف بما تمليه عليه مصالحه دون أي ارتباط بالحكومة المركزية في قرطبة التي كان يظهر تمسكه بطاعتها.

تحرك ألفونسو الثالث بحشوده من سمورة، وعسكر على الضفة الشمالية لنهر دويرة بإزاء الجيش الإسلامي المرابط على الضفة الأخرى، وتقدمت خيالته فاصطدمت بها خيالة المسلمين حيث دارت معركة عنيفة وسط وادي دويرة، ولم تلبث الهزيمة أن لحقت بخيالة ألفونسو الثالث فتتبعهم خيالة المسلمين بالقتل والأسر إلى أن اقتحم المسلمون في واد وعر ضيق المسالك يقال له أردوني على مقربة من سمورة، فقاتلهم أقبح قتل وأخذوا يطاردون فلولهم صوب مدينة سمورة، فانحرف معظمهم عن دخولها، وتجاوزوها بأكثر من عشرة أميال إلى داخل بلدهم. فلما رأى زعال بن يعيش وزعماء قبيلة نفزة البربرية ما حققه ابن القط من انتصارات على النصارى أكل الحسد والحقد قلوبهم وقالوا: «إن تم لهذا الرجل هذا الفتح العظيم وانصرف إلى ما قبلنا لم نسكن بلدنا معه وخرجنا عنه من أجله» قرروا التخلص منه قبل أن ينتهي القتال لصالحه، فانسحبوا من ميدان القتال وتبعهم بنو عمومتهم من القبائل البربرية وادعوا كذبًا لمن قابلوه في أثناء انسحابهم بأن الهزيمة قد حلت بالمسلمين، فاقتدى الجميع بهم، ونكصوا على أعقابهم راجعين، فشعر النصارى بما حدث، فكروا على المسلمين وركبوا أكتافهم وأكثروا القتل فيهم أثناء عبورهم وادي دويرة واستمر القتال حتى حلول الليل، ومع أن العديد من المسلمين انتهزوا حلول الليل للفرار من المعسكر إلا أن الكثيرين ثبتوا مع ابن القط، واستمر القتال في اليوم ولكن كفة النصارى ظلت هي الراجحة وأحاطوا بمعسكر المسلمين من جميع الجهات واستمر القتال في اليوم الثالث ولكنه انتهى لصالح النصارى وبمقتل ابن القط، فاحتز رأسه وجيء به إلى ألفونسو الثالث، فأمر بنصبه على باب سمورة وذلك في العشرين من رجب 288 هـ (10 يوليو 901 م).

سار ابن القط بتلك الحشود ذات الأكثرية البربرية وجعل وجهته مدينة سمورة، فعبر وادي تاجه، ولحق به جموع من أهل طليطلة وطلبيرة ووادي الحجارة وشنتبرية. سمورة Zamora تقع على الضفة اليسرى لنهر دورة قريبًا من الحدود الشمالية الشرقية للبرتغال. كانت في أوائل أيام الإمارة الأموية منطقة خلاء بين مملكة ليون والإمارة القرطبية، وكان العرب لأول الفتح قد أسكنوها وإقليمها. جماعات من المسلمين معظمهم من البربر، ثم استولى عليها ألفونسو الثالث 280 هـ (893 م) وأراد أن يضمها على مملكة ليون، ولكن عبد الرحمن الناصر استردها، ثم استولى عليها سانشو ملك نبرة 348هـ (959 م) وتمكن المنصور بن أبي عامر من استردادها وتعميرها وتحصينها 378 هـ (988 - 989 م) ثم أسكنها نفرًا من المسلمين 385 هـ (999 م) وأقام عليها أبا الأوس معن بن عبد العزيز التجيبي حاكمًا، ويبدو أنها خرجت عن يد قرطبة بعد ذلك لأن عبد الملك المظفر بن المنصور عاد فغزاها 395 هـ (1005 م) ثم خرجت بعد ذلك عن أيدي المسلمين وأصبحت من قواعد مملكة قشتالة وليون. كان الثائر البربري زعال بن يعيش من أوائل الذين انضموا إلى ابن القط ولا سيما أن ابن القط كان قد نزل عند قبيلة نفزة التي كان زعال أحد زعمائها، إلا أن الحقد بدأ يأكل قلبه بعد أن نجح ابن القط في دعوته فندم على انضوائه تحت رايته: «وخاف أن يغلبه على رياسته قومه، فأسر ذلك إلى من وثق به من أصحابه وأوطأهم على الحيلة في إتلاف هذا الداعي والفتك به.

حشد ابن القط حشوده على ضفاف نهر دويرة، وكتب من هناك كتابًا إلى أذفنش بن أردون ملك أشتوريش وجليقية وإلى جميع من اجتمع له من زعماء النصارى مغلظًا بدعوهم فيه إلى الإسلام وينذرهم بسوء العاقبة وأمر رسوله أن يستعجل منهم الرد على كتابه، فلما وصل رسوله إلى سمورة دفع

بكتابه إلى الملك: «فلما قرئ عليهم وترجم لهم تحروا وغضبوا ونهضوا من فورهم ذلك إليه يريدون مكان محتله». هو أذفونس الثالث بن أردون الأول ابن ردمير الأول أشتوريش وجليقية الملقب بالعظيم Alfonso III, El Magno حكم بين 866 و909 م (252 - 296هـ) تولى العرش بعد وفاة أبيه وكانت لا تتجاوز الثامنة عشرة، فثار عليه إخوته ولكنه هزمهم وقبض عليهم وسمل أعينهم، كما أخضع الكثير من الثورات بسرعة، ويعتبر ألفونسو الثالث من أعظم ملوك النصرانية وأكثرهم حزمًا ودهاء وشجاعة، فقد صمد للمسلمين على الرغم من الحملات الإسلامية المتكررة التي وجهها الأمير محمد إلى بلاده، مما استحق معه لقب العظيم، إذ استطاع أيضًا أن يوطد سلطانه على ضفاف وادي دويرة بل ويمد حملاته مخترقًا بلاد المسلمين إلى وادي تاجة وكان يعمل على تأييد ثورات المتمردين على قرطبة -. ولعل أهم ما قام به ألفونسو الثالث هو تعمير الناطق الجنوبية من مملكته المتاخمة للأندلس الإسلامية، وإسكان المستعربين النصارى القادمين من الأندلس إياها، كما قام بإنشاء عدد كبير من الكاتدرائيات والأديرة، ولكنه تعرض لمؤامرة من داخل أسرته فتنحى عن العرش لابنه 296هـ (909 م) وتوفي في 20 ديسمبر 910 م (14 ربيع الثاني 298 هـ).

وكان لزعال بن يعيش دور هام في حركة ابن القط، وهو أب القاسم أحمد بن معاوية بن محمد المعروف بابن القط من ولد هشام بن معاوية بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، وكان قد انتزى على الأمير عبد الله ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، وخرج من قرطبة متجهًا إلى حشود البربر في فحص البلوط وجبل البرانس: «داعيًا إلى إقامة الحق وأزهاق الباطل فأضلهم وأعمى أبصارهم وبدا فدعاهم إلى إقامة الجهاد وحركهم لنصر الديانة وذم إليهم إمامهم عبد الله أمير الجماعة وعطلوا أعمالهم واجتمعوا

عنده ولزموه فعسكر بهم وشد من عـزائهم. ثم اتجه بتلك الحشود البربرية في فحص البلوط إلى الشمال وعبر نهر آنة حتى نزل بمدينة ترجيلة، وكانت قبيلة نفزة البربرية تسكن هذه المدينة وما حولهـا، فقوبل من جانب هؤلاء النفزانيين بالترحيب والتـأييد، وأخذ يكاتب القبائل البربرية الأخـرى يدعوهم لنصرته: «ويزعم لهم أنه المهدي فائز الدين وعاصم المسلمين. إن تسـميته بالمهدي وهي ألقاب لم نسمعها من قبل في الأندلس، وإن كانت في المشرق شائعة بين فرق الشيعـة على الخصوص ويقصد بالمهدي عنـدهم الإمام المنتظر الذي يملأ الدنيا عدلا كمـا ملئت جوراً، كما ينبـغي أن نسجل هنا أن مهدي هـذه الثورة كان يشبه إلى حـد بعيد مهـدي الشيعة الإسمـاعيلية أي إنه إنسان يجـري عليه ما يجري على البـشر من حيـاة أو موت، وهذا بخلاف الشـيعة الاثنى عـشرية الذين يعتـقدون أنه لم يمت، بل هو حي يرزق اختـفى في سرداب وأنه يظل كذلك حتى يظهر مرة أخرى حين تستـدعي الأحوال ظهوره. فانثال عليه أهل تلك النواحي من البـربر ثم أخرج رسـلا إلى جميـع أنحاء النطقـة الشمـالية والغربية من الأندلس يدعـوهم إلى الجهاد معه ويعـدهم النصر على أعدائهم من أهل جليقية: «فلما وردتهم رسل هذا الرجل وقرأوا كتبه طابت أهواءهم، فخـرجوا نحوه مبـادرين إليه مستـبقين نحوه كـأنما صيح فيهم لقـدر مكتوب مـجلوب وصاروا إليـه على الصـعب والذلول فاجـتـمع عنده من الفرسـان والرجالة نحواً من ستين ألفًا وقيل أكثر من ذلك. أما عن زعال بن يعيش فقد ظل يسيطر على حصن أم جعفر قرابة عشرين عامًا، فلما توفى خلفه ابن عم له اسمه عبد الله بن عـيسى بن قوطي، فمكث حاكمًا على أم جعـفر خمسة أعوام إلى أيام الأمـير عـبد الرحـمن بن محمـد (الناصر لدين اللـه)، عندما اقترب القائد أحمد بن محمد بن إلياس 316 هـ (928 م) من حصن أم جعفر وضيق عليه، فأسرع ابن قوطي إلى إعلان رغبته في الدخول في طاعة السلطة

الأموية، والتمس ذلك على يدي الحاجب موسى بن محمد بن حدير، فنجح ابن حدير في مسعاه، واشترط عليه تسليم حصنه أم جعفر والنزول إلى قرطبة على أن يسجل في الديوان ويتوسع له في رزقه، فأجيب إلى ذلك، فلحق بقرطبة وأسلم حصنه أم جعفر إلى الوزير أحمد بن محمد بن إلياس[1].

ثورة محمد بن عبد الكريم بن إلياس

ينتسب محمد بن عبد الكريم بن إلياس إلى قبيلة مغلية من البربر البتر. وكان أبوه عبد الكريم من الموالين للدولة الأموية، إذ كان أحد جنود الأمير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن عند حصاره لعمر بن حفصون الثائر ببشتر من كورة ريه. فلما توفى الأمير المنذر بن محمد تحت أسوار مدينة ببشتر، في منتصف صفر 275 هـ (يونيو 888 م)، هو إمام الثوار المولدين ورائد الشعوبيين في عصر الإمارة عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شيتم بن ذبيان بن فرغلوش بن أذفونش، أي أنه ينحدر من نسل قوطي، وأول من دخل الإسلام من أسرته كان جعفر والد جد عمر بن حفصون في عهد الأمير الحكم بن هشام (الربضي) وكان لحفصون من الأبناء ثلاثة أكبرهم عمر الذي تميز عن أخوته بشراسته وميله إلى العنف وانتهى به الأمر إلى الفرار من الأندلس إلى بلاد المغرب ونزل بمدينة تاهرت حيث اشتغل عند خياط من المولدين، وقد نصحه شيخ أندلسي كان في زيارة لهذا الخياط بأن يعود إلى بلاده ويستخدم السيف بدلا من الإبرة متنبئًا له ملكًا عظيمًا فعاد إلى مسقط رأسه وجمع حوله عددًا كبيرًا من المولدين واستولى على حصن روماني قديم منيع اسمه ببشتر ومن هناك أعلن الثورة على الحكومة الأموية، وقد تطلب إخمادها استنزاف جهود أربعة أمراء من أمراء الأندلس هم محمد بن عبد

---

(1) د. حمدي عبد المنعم محمد حسين، نفس المرجع، ص 81.

الرحمن، والمنذر بن محمد وعبد الله بن محمد وعبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) وقد توفى 305 هـ (918 م).

انسحب عبد الكريم بن إلياس في قومه إلى سكناهم بكورة شذونة، فلما وجد أن العرب الذين كانوا يسكنون قلعة ورد قد أخلوها، دخلها بقومه وأعلن تمسكه بطاعة الحكومة الأموية. فلما توفى عبد الكريم بن إلياس خلفه ابنه محمد في حكم قلعة ورد فانتهز سوء الأوضاع الداخلية وانتزى بقلعة ورد، ولكن الأمير عبد الله بن محمد راسله ودعاه إلى الطاعة، ومن المرجح أن يكون قد اشترط على الأمير عبد الله أن يكون أشبه بحاكم مستقل ذاتيًا بتلك القلعة مقابل إعلان التبعية والولاء لحكومة قرطبة يؤكد ذلك قول ابن حيان: «فامتنع بقرية ورد من كورة شذونة بلده وسعى للفتنة سعيه وراسله الخليفة عبد الله وداراه فانحرف إليه وقبل الأسجال له على بلده فاستكشف شره. ولما تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد (الناصر) أقر محمد بن عبد الكريم على قلعة ورد، والتزم الأخير بالقدوم إلى قرطبة عند كل غزاة والخروج مع الناصر في جميع غزواته، ولكن في عام 316 هـ (928 م) استنزل عبد الرحمن الناصر زعماء الثورة في كورة شذونة وكان من بينهم محمد بن عبد الكريم بن إلياس الذي قدم إلى قرطبة، فأكرم الناصر منزلته، وظل مقيمًا بها حتى وفاته.

ثورة عمر بن مضم الهترولي

ينتسب عمر بن مضم الهترولي إلى بربر قرية الملاحة من كورة جيان ولذا عرف بالملاحي. وكان الملاحي أحد الجنود المدونين لدى عامل جيان، ولكنه لم يلبث أن وثب عليه وغدر به واستولى على قصبة جيان، وتحالف مع سعيد بن هذيل المنتزى بحصن المنتلون من جيان. ثار سعيد بن هذيل بحصن

المنتلون Monteleon من حجيان، فبنى قصبة الحصن وحصنها، فبعث إليه الأمير عبد الله القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية، فأذعن بالطاعة، ثم نكث، وعاقد عمر بن حفصون، وقد استنزله عبد الرحمن الناصر وأسكنه قرطبة، وأقام على المنتلون عاملا من قبله هو أحمد بن عبد الوهاب، فثار عليه أهل المنتلون وطلبوا أميرهم سعيد بن هذيل، فأقر الناصر على ولاية الحصن عبد الله بن سعيد، فسكن الناس إليه. فلما عاث الهترولي فساداً وانتشر شره، سير إليه الأمير عبد الله بن محمد القائد. أحمد بن محمد بن أبي عبده. أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن أبي عبده يعتبر من أعظم القواد العسكريين الذين أنجبتهم الأندلس، فهو الذي اضطلع بالعبء الأكبر في محاربة الثوار والمنتزين على قرطبة طوال إمارة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط، ولولاه لأوشكت دولة الأمويين على أن تنهار خلال هذه الفتنة وقد وصفه ابن القوطية بقوله: حسن بلاء القائد أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي عبده في قيادته لجيش الأمير عبد الله بن محمد وكرمت مقاومته في الذب عن الدولة وقام بحروب جميع المخالفين على وفور أعدادهم وإنما كانت عدته في حروبه ومعوله في زحوفه على نحو ثلاثمائة فارس من مدونة الجند بقرطبة، كانوا أنجاداً نخبة فلم يجتمع مثلهم في عسكر الأندلس بهم اقتحم الغمرات الشديدة، وبلغ المبالغ المشهورة ودافع أشد المخالفين وإمام المجرمين عمر بن حفصون عند انبساطه على الفارة في أحواز قرطبة وبأكنافها المرة بعد المرة إلى أن نازله على بابه بقلعة ببشتر وجلب الخيل إليه، فاشتد الأمير عبد الله بمكان قائده هذا وانتصف من أعدائه وأخرج الجيوش من قرطبة معه إلى كثير من بلاد الأندلس المستفلقة عليه، فأرهب أهلها وأورد عليه كثير من جباياتها. واستعان به عبد الرحمن الناصر في السنوات الأولى من حكمه، فظل يتكرر بالغزوات حتى استشهد في 14 ربيع

الأول 305 هـ (4 سبتمبر 917 م). وقد لجأ الأخير إلى الدس والوقيعة بين الهترولي وحليفه سعيد بن هذيل، وتمكن حق إقناع ابن هذيل بعزم الهترولي على الغدر به واقترح عليه انسحاب جنده الذين أرسلهم مددًا للهترولي عند وقوع القتال بين جند الإمارة وبين جند الهترولي، فاستجاب ابن هذيل ووافقه على طلبه، فلما التقى الهترولي وابن أبي عبده انسحب جند ابن هذيل كما خذله أهل جيان مما أدى إلى هزيمته وانسحابه واعتصامه بالقصبة، فلما اشتد عليه الحصار، طلب الأمان، فأمنه القائد أحمد بن أبي عبده وقدم به إلى قرطبة وتم ذلك في 290هـ (902 م).

ثورة خليل وسعيد ابنا مهلب

في الوقت الذي اضطربت فيه الأمور في كورة البيرة تمرد خليل وسعيد ابنا مهلب. ينتسب بني مهلب إلى قبيلة كتامة من البربر البرانس. فاستولى خليل على حصن قرذيرة Corodela بينما استولى سعيد على حصن أشبر غيره Esparraguera، قرذيرة واشبر غيره حصنان يقعان على مسافة تبعد خمسين كيلو مترًا إلى الشمال الشرقي من غرناطة. وأظهرا مع اعتزازهما الاستمساك بالطاعة. فأسجل لهما الأمير عبد الله على ما في أيديهما وقد اشتركا معًا في محاربة الثائر الأندلسي عمر بن حفصون وحليفه سعيد بن مستنة، سعيد بن وليد بن مستنة: يتلو ابن حفصون في التمرد وشدة الشكيمة وكان صاحبًا له، ولذلك كان زميلا لابن حفصون في التعصب للمولدين والعجم، ولقد ثار ابن مستنة في كورة باغة واستولى على حصونها، ونجح ابن مستنة في هزيمة القائد إبراهيم بن خمير الذي تبعه الأمير عبد الله لإخماد حركته واستمرت ثورته حتى نهاية عصر الأمير عبد الله. فلما توفى خليل اجتمع لسعيد عمل الحصنين معًا إلى أن توفى أيضًا فخلفه أولاد له. فلما كانت أيام الأمير عبد

الرحمن بن محمد (الناصر) استنزل أولاد سعيد بن مهلب فيمن استنزل من الثوار وهدم حصونهم وتم ذلك 309 هـ (921 م).

ثورة ابن يامين وابن ماجويل

يشير ابن حيان في حوادث عام 285 هـ (898 م) إلى قيام الأمير عبد الله بن محمد بتسيير قائده عباس بن عبد العزيز إلى حصن كركي. حصن كركي Caracuel يقع إلى الشرق من ماردة بينها وبين قلعة رباح. ويقع الآن على مسافة تبلغ نحو عشرين كيلو مترًا إلى الجنوب الغربي من المدينة الملكية Ciudad Real وجبل البرانس وتمكنه من قتل ابن يامين وابن ماجويل ويصفهما بأنهما من أعلام المخالفين وأخذ حصونهما. ولم يشر ابن حيان إلى أن ابن يامين أو ابن ماجويل ينتسبان إلى البربر، بيد أن ثمة دلائل تشير إلى انتساب هذين الثائرين إلى البربر، فقد أشار ابن حيان - كما سبق أن أشرت في حوادث عام 259 هـ (872 م) إلى أحد المتمردين على الإمارة الأموية يدعى ابن يامين البربري وأنه امتنع بجبل البرانس، وأن الأمير محمد بن عبد الرحمن قبض عليه وصلبه على سور مدينة طليطلة. ولذا فمن المرجح أن يكون ابن يامين الثائر على أيام الأمير عبد الله ابنًا أو قريبًا لذلك المصلوب على سور طليطلة. لا سيما وأننا نرى توافقًا في المكان الذي قامت فيه ثورتاهما (جبل البرانس) فضلا عن توافق الاسمين.

أما ابن ماجويل الذي صار في حصن كركي، فالمعروف أن هذا الحصن وجبل البرانس يعدان من المواطن المكتظة بالبربر في ذلك العصر إلى درجة أن لفظ البربر يلحق بهما فيقال «برابر كركي وجبل البرانس». فإذا كان سكان هذين الموضعين بربرًا، فمن المنطقي أن لا يتمرد على الحكومة المركزية فيهما إلا زعيم من السكان المحليين ليحصل على العصبية اللازمة لإنجاح تمرده.

ثورة بنو الخليع في تاكرنا

يشير ابن حيان في حوادث عام 286 هـ (899 م) إلى ارتداد عمر بن حفصون عن الإسلام واعتناقه المسيحية مما أدى إلى غضب حلفائه من المسلمين ومنهم «عوسجة بن الخليع التاكرني ظهيره وانحرف عنه وأظهر الميل إلى الطاعة وانتبذ إلى حصن قنيط فصار حربًا لا بن حفصون. وهو ما يؤكد على أن بني الخليع كانوا حلفاء لعمر بن حفصون ثم انقلبوا عليه عقب ارتداده وأعلنوا الطاعة والولاء للإمارة الأموية وصاروا حزبًا على ابن حفصون. ومن المرجح أن بني الخليع سرعان ما خلعوا طاعة الإمارة الأموية. إذ يشير ابن حيان في حوادث عام 293 هـ (905 - 906 م) إلى دخول القائد أحمد بن محمد بن أبي عبده حصن قنيط واستنزاله من كان فيه من بني الخليع[1].

***

(1) د. حمدي عبد المنعم محمد حسين، نفس المرجع، ص 90.

الحروب الصليبية المسيحية ضد الإسلام والمسلمين في إسبانيا

الفتوحات الإسلامية بأوروبا الغربية

عرفت مما مضى أن القوات الإسلامية زحزحت القوات المسيحية عن غرب آسيا وشمال أفريقيا. ثم عبرت هذه القوات البحر وجعلت من الأندلس (وشبه جزيرة أيبيريا) وطنًا إسلاميًا، لعب فيه العرب والمسلمون دورًا حضاريًا خالدًا. وتقدمت الفتوحات الإسلامية شمال جبال «البرانس (Pyrenees)» وشرقها، خصوصًا مدة ولاية الفاتح عبد الرحمن الغافقي؛ فقد وصلت طلائع جيشه إلى مدينة «صانص Sans» التي لا تبعد عن باريس أكثر من مائة «ك م». وأصبحت ضفاف «الرون Rhoneå و«الصاوون Saone» و«لوار La Loire» تحت سيادته. وقبل عبد الرحمن الغافقي كان البطل موسى بن نصير قد رسم خطة عظيمة لما اخترقت جيوشه جبال البرانس؛ فقد كان عازمًا على الوصول إلى دمشق عن طريق أوروبا الجنوبية والقسطنطينية. وبذلك يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية. ويقضي على الإمبراطورية البيزنطية، وتفتح عاصمتها التي صمدت للغزوات الإسلامية الأولى. ولكن الخليفة الأموي «الوليد بن عبد الملك» أجبر موسى بن نصير على الرجوع إلى دمشق وترك إسبانيا الإسلامية والإقلاع عن متابعة خطته الكبرى. فغادر موسى بن نصير إسبانيا الإسلامية (95 هـ/ 715 م) آسفًا حزينًا لما حيل بينه وبين تحقيق الأمل الكبير. لما عبر المسلمون جبال البرانس كانت غاليا (فرنسا) تحت سيادة الملوك «الميروفنجيين Merovingiens» ولم يبق هؤلاء الملوك في قوتهم وعظمتهم الأولى؛ فقد مضى عليهم زمن طويل انتهوا بعده إلى

الضعف والانقسام. وأصبحت السلطة بيد غيرهم خصوصًا رؤساء البلاط.
وكان الميروفنجيون قد اعتنقوا المسيحية منذ عهد الملك «كلوفيس Clovis» 493م
مؤسس المملكة فعظم شأن الرهبان والأساقفة وأصبحت لهم قوة ونفوذ، وكان
ذلك سببًا في توثيق عرى الصلات بين البابا بروما وبلاط الإفرنج بفرنسا.
الإفرنج أو الإفرنك (Les Francs) قسم من الشعوب الجرمانية الوثنية التي
اكتسحت غرب أوروبا في أوائل القرن الخامس المسيحي، استقروا بغاليا ومنهم
اشتق اسم «فرنسا». لم تلبث عائلة شارل أن استولت على مقاليد الحكم
وقصت على العائلة الميروفنجية تحت اسم الكارولنجيين (Carolingiens)
والعرب القدامى يطلقون (قارله) على شارل مارتيل وهو إطلاق يساير النطق
اللاتيني (Carolus). عندما رأى الإفرنج التوغل الإسلامي في بلادهم بقيادة
عبد الرحمن الغافقي استعدوا لرد الخطر الداهم. وكانت المقاومة الإفرنجية
تحت قيادة رئيس البلاط المشهور باسم «شارل مارتيل Charles Martel» والتقى
الجمعان على ضفاف نهر لالوار بين مدينتي «تور» و«بواتيه» «Tours - Poitiers»
114 هـ/ 732 م وكان قد مضى على الجيش الإسلامي شهور عديدة وهو
مواصل للجهاد والغزو، فكان يوم اللقاء منهوك القوى مثقلا بالغنائم.
واستمرت المناوشات أسبوعًا ثم احتدم القتال عنيفًا كامل اليوم بدون تغلب
جانب على جانب. وأثناء هذا القتال العنيف أصيب القائد الإسلامي (عبد
الرحمن الغافقي) بسهم فأراده شهيدًا بين الصفوف. وتابع المسلمون قتالهم
إلى الليل بدون أن يظهر عليهم فتور بعد موت قائدهم. ولكن أثناء الليل دب
الخلاف بين صفوف المسلمين، فقرروا الانسحاب والرجوع تحت جنح الظلام.
ولم يصدق الإفرنج في الغد بحقيقة انسحاب المسلمين، فقد ظنوها مكيدة
حربية؛ لأنهم لم يلحظوا عليهم علامات ضعف وانهزام عندما كانوا
يقاتلونهم. وعلى هذه الصورة انتهت معركة بلاط الشهداء. وكانت بداية

لتراجع القوات الإسلامية عن أراضي غاليا (فرنسا). ومنذ ذلك العهد أخذت السيادة العربية تتراجع شيئًا فشيئًا حتى انكمشت في بلاد الأندلس. وأصبحت سلسلة جبال البرانس فاصلا بين المسلمين والإفرنج المسيحيين في أوروبا الغربية. ولكن صراعًا جديدًا بين الإسلام والنصرانية سيبدأ في إسبانيا الإسلامية نفسها بين القوات الإسلامية وفلول القوط، الذين التجأوا إلى جبال أشتورية وجليقية الصخرية. وكانت تلك الفلول نواة للممالك الإسبانية التي تصدت لمقاومة المسلمين، ومن ورائها أوروبا المسيحية تمدها بالمساندة المادية والمعنوية. بعد أن عم الفتح الإسلامي بلاد إسبانيا التجأ بعض أشراف القوط وأعيانهم مع فلول المنهزمين إلى الناحية الشمالية الغربية بشبه الجزيرة. وكانت جبلية صخرية منيعة؛ فاستقروا هنالك واعتصموا بالجبال تحت زعامة أحد أشراف القوط «بلاي Playus». واحتقر الغزاة المسلمون أمر هذه الشرذمة المعتصمة بالجبال؛ ولم يحاولوا - جديًا - القضاء عليها كما قضوا على قوات البربر المعتصمة بجبال الأطلس؛ فكانت هذه أعظم هفوة سياسية وحربية ارتكبها هؤلاء الغزاة، لأنها هي التي جعلت من تلك الشرذمة نواة للممالك الإسبانية التي كانت الخلافات والثورات الداخلية التي أعقبت الفتح الإسلامي لإسبانيا خير معين لها على التقوي والنمو شيئًا فشيئًا، فتكونت مملكتان صغيرتان في أشتورية وجليقية. وكانت مملكة الجلالقة أعظم قوة وأوفر حظًا. ثم اتحدت المملكتان، إلا أن الخلافات كثيرًا ما كانت تشتت من تلك الوحدة فكانت إسبانيا النصرانية مرة متحدة ومرة منقسمة.

يعتبر البابا، الجالس على الكرسي الرسولي بروما، الرئيس الديني الأعلى لنصارى الغرب والمذهب الكاثوليكي. وكان البابا يساند أي ملك من الملوك ينهض للدفاع عن المسيحية والنفح عنها. ومن دون ريب أن البابوية كانت تنظر إلى التقدم الإسلامي في أوروبا الغربية نظرة حقد عليه، وإشفاق

على مواطن المسيحيين. حتى إذا كـانت معركة بلاط الشهداء وتوقف الزحف الإسلامـي بعدها، انتـعشت البـابوية واهتزت أوروبا النصـرانية أيما اهـتزاز، وأضفت على «شـارل مارتيل» مـختلف نعوت الإجـلال والبطولة. واعتـبرته الكنيسة الكاثوليكية حاميًا للنصرانيـة ومنقذًا لها من الانهيار. وهكذا اكتسبت حروبه مع المسلمين صـبغة الحروب المـقدسة. ولما خلفه ابنه «بيـبان Pepin le Bref» على زعامة الإفـرنج، ونهج مسلك أبيه في محاربـة المسلمين، ساعدته الكنيسة الكاثوليكيـة على إسقاط العائلة الميروفنجية وانتـصابه ملكًا على غاليا (132 هـ - 751 م)، وجاءه البابا إلى فرنسـا وباركه. والملك «بيبان» هو الذي حارب اللمـباردين في شـمال إيطاليا لمـا استنجد به البـابا، فحـماه من هذا الهجوم. ثم منح الكنيسة البابويـة الأراضي التي افتكها من اللمباردين. وكان ذلك بداية لمملكة الكنيـسة البابوية. وفي عهـد «شارلمان Charlemagne» ازداد الاتصال توثقًا بين مملكة الإفرنج الكارولنجيـة والكنيسة البابوية. وسار شارلمان على سنة أبيه فـي حماية الكنيـسة البابوية ومـحاربة اللمـبارديين والمسلمين، ومحاولة انتزاع إسبانيا منهم. (وفي 183 هـ - 800 م) سار شارلمان إلى روما ليتوجـه البابا. وأصبحت مملكته تـدعى «الإمبراطورية الغربية المقـدسة». فإذا عرفنا أن هؤلاء الـثلاثة (مارتيل - بيـبان - شـارلمان) كانوا هم الذين تتـابعوا على محـاربة المسلمين خارج جبـال البرانس حتى انحـصر الإسلام في شـبه الجزيرة، وعرفنا صلتهم المتينة بالبابا، أمكننا أن ندرك قدم ظهور فكرة الحروب الصليبية التي ظهرت بالمغرب الإسلامي عن ظهورها بالمشرق.

كـان الإسبـان على المذهب الأريوسي الذي لا يقـول بألوهية المسـيح، عكس المذهب الكاثوليكي، إلا أن الملك «ريكارد» جـحد سنة 557 م المذهب الأريوسي واعـتنق المذهب الكاثوليكي، فـأخذ هذا المـذهب منذ ذلك العهـد ينتشر شيئًـا فشيئًا. وفي بادئ الأمر لم يكن نصارى الإسبان مـعترفين بسيادة

البابا عليهم، ولكن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر المسيحي (قبيل اندلاع الحروب الصليبية بالمشرق) أصبحت ديارات مملكة أرغونة تحت السيادة البابوية. وفي مقابل هذا الاعتراف نال الملك «صانشورامريز» إذنًا من البابا في محاربة المسلمين من ريع. أحباس الكنائس الواقعة في مملكته. وفي عهد البابا قريقوار السابع 468 هـ - 1075 م اعترفت جميع إسبانيا النصرانية بسلطة البابوية وإشرافها. وتأسست هيئة إكليورس في البلاد. وبعد سقوط طليطلة (478 هـ/ 1086 م) وفد إلى إسبانيا كثير من المحاربين الفرنسيين نتيجة لمساعي المطران «برنارد» الذي ارتفعت منزلته، فمنحه البابا «أوروبان الثاني» الثوب الكهنوتي، وانتصب رئيسًا أعلى للكنيسة الإسبانية. كما أصبح للبابا أوروبان نفوذ كبير في إسبانيا. وأصبح مسموع الكلمة في تعيين وعزل الأساقفة الإسبان. وفي 482 هـ/ 1089 م دعا إلى مساندة الإسبان في حروبهم ضد المسلمين، فاستجاب لندائه كثير من فرسان جنوب فرنسا، إذ لم تكن تلك الحروب إلا أعمالا صليبية جليلة. المطران «برنارد» هو الذي سعى لتحويل مسجد طليطلة إلى كنيسة رغم التعهد الذي أعطاه ألفونس السادس للمسلمين لما استسلمت له المدينة. ولم يتخذ هذا البابا جنوب فرنسا مركزًا لإعلان الحروب الصليبية إلا لما يعلمه من اتصال هذه المناطق بإسبانيا، ومشاركتها السابقة في محاربة المسلمين بالبلاد الإسبانية.

وفي مجمع كليرمون، الذي أعلنت فيه الحرب الصليبية بالمشرق، أراد المطران «برنارد» وعدد من القساوسة الإسبان المشاركة في الحروب الصليبية بالمشرق إلا أن البابا «أوروبان» منعهم من ذلك، لأنه توجد في بلادهم (إسبانيا) حرب صليبية. كما أصدر هذا البابا مرسومًا حرم فيه على رجال الدين والفرسان المشاركة في صليبيات المشرق، لأن محاربة المسلمين بإسبانيا لا تقل أهمية واعتبارًا عن الحرب الصليبية المشرقية. وقد ترتب على ذلك أن

هرع الكثير من الفرسان من مختلف أنحاء أوروبا إلى الأندلس ليساهموا في حرب صليبية، هي أقرب سبيلا وأيسر مشقة وعناء. ولما أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن نجاحها أعلن البابا «باسكال الثاني Pascal II» الحرب الصليبية ضد مسلمي إسبانيا. وقد أصبح من المألوف أن يأذن البابا لملوك الإسبان في استعمال أموال الكنائس لمحاربة المسلمين. وكانت البعثات الصليبية الواردة من أوروبا الشمالية (بريطانيا - ألمان - هولنديون) لا ترى مانعًا إذا تعطلت في سيرها أن تعين ملوك الإسبان في حروبهم ضد المسلمين، وأن يكتفي البعض منهم بتلك المساهمة. وفي 632 هـ/ 1244 م أصدر البابا قريقوار التاسع قرارًا وعد فيه النصارى الذين يحاربون مع ملك البرتغال «صانشو الثاني» بغفران ذنوبهم كما لو كانوا في الحروب الصليبية بالأراضي المقدسة، وكان البابا يثير حماسة البرتغاليين ضد المسلمين. يعتبر الملك خايم الأول (Jayeme I) ملك أرغونة من أشد ملوك الإسبان محاربة للمسلمين وتنكيلا بهم. ولما اعتزم احتلال جزيرة ميورقة جعل الصليب شعاره وانضم إليه الكثير من الجنويز والبروفانسيين. وعندما عزم هذا الملك على احتلال بلنسية أيده البابا قريقوار التاسع ودعا النصارى إلى مساندته، فاستجاب لذلك فرسان فرنسا وبريطانيا.

واهتم الملك خايم لما يقع في الشرق وما يكيله الظاهر بيبرس من ضربات للصليبيين فتهيأ للقيام بحرب صليبية في بلاد المقدس باعتباره من كبار ملوك النصرانية إذ ذاك، فأقلع في مستهل سبتمبر 1269 م (668 هـ) من برشلونة في حملة صليبية قاصدًا البلاد الشامية، إلا أن عاصفة أجبرته على الرجوع إلى أرغونة. ولكن ابناه غير الشرعيين (فيراندو - و- فيرامديز) تابعا سيرهما بقسم من الأسطول، ونزلا بساحل عكا في شهر أكتوبر. لم تشابه الحروب في إسبانيا الإسلامية الحروب الصليبية المشرقية في الروح الديني

فحسب، بل تابعتها حتى في روح الفروسية. فقد مر عليك - فيما مضى - ما كان لفرسان المعبد والأسبتارية من القيمة والاعتبار في الحروب الصليبية بالمشرق. وقد ذاع صيت هؤلاء الفرسان عند النصارى الإسبان وعند ملوكهم، حتى أوصى «ألفونسو المحارب» ملك أرغونة أن تقسم مملكته أثلاثًا: الأول لسلام روح أبويه وللقبر المقدس وسدنته وكهنته، والثاني لفقراء الأسبتارية وفرسانها، والثالث لفرسان المعبد. كما انتظم «ريموند الثالث» في سلك فرسان المعبد. أما ابنه «ريموند الرابع» فقد بعث إلى كبير فرسان المعبد بالمقدس أن يرسل عددًا من فرسانه إلى قطلونية. وقد أسس أول دير لهذه الطائفة ووهبها الكثير من الأملاك والحقوق والمزايا، ثم تأسست في سائر إسبانيا النصرانية فرق من الفرسان على شاكلة فرسان المعبد. وكان لهذه الفرق عظيم الأثر في الانتصارات التي سجلها الإسبان ضد المسلمين في الأندلس. وهكذا تبدو الصلة وثيقة متينة بين الحروب الصليبية العامة، التي كانت تهدف إلى استخلاص بيت المقدس، وبين الحروب الصليبية بالمغرب التي كانت تهدف إلى استرجاع إسبانيا إلى حظيرة النصرانية من جهة، وإلى محاربة القضاء عليه من جهة أخرى[1].

حول معركة بلاط الشهداء

يرى كثير من الباحثين أن وقعة بلاط الشهداء كانت إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام خصوصًا، وتاريخ العالم عمومًا: إذ هي تعتبر بداية لتوقف الوثبة الأولى من الفتوحات الإسلامية التي ابتدأت من الشام ومصر ووصلت إلى جنوب فرنسا ووسطها. ولكن هل كان هذا التوقف لخير أوروبا وسعادتها أم لشقائها وخسارتها. إن الإنصاف يقر بالثاني؛ فإن الإسلام

---

(1) د. محمد العروس، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 193.

ما حل بأرض إلا زرع فيها بذور الحضارة والتقدم والعدالة. وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في الجهالة والأمية والتوحش كانت البلاد التي يسودها الإسلام ترفل في حلل الرفاهيـة والحضارة، والثقافـة والعمران. وإليك بعض الآراء في قيمة هذه المعركة وأثرها. أ - لنفترض أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جو شمال فرنسا كـجز إسبانيا غير بارد ولا ماطر فاسـتوطنوه فماذا يصـيب أوروبا؟. كان يصيب أوروبا النـصرانية المتبـربرة ما أصاب إسبانيـا من التقدم والارتقاء والحضارة الزاهرة الرفـيعة تحت راية النبي العربي ﷺ. وكان لا يـحدث في أوروبا، التي كانت قد هذبهـا الإسلام، ما حدث فـيها من الكبائر كـالحروب الدينية وملحـمة «سان بارتلمي» ومـحاكم التفتيش وكل ما لم يعرفه العرب من الوقائع التي ضرجت أوروبا بالدماء عدة قرون. أفـظع المذابح الدينية. ووقـعت في فرنسـا ليلة 23 أغسطس 1572 م أجهز فيهـا الكاثوليك على البروتستان في عهد شارل التـاسع. وقدر بعضهم عدد القتلى بستين ألفًا. أما محاكم التفتيش فهي المحاكم الخطيرة التي انتصبت في إسبانيا لمحاكمـة المسلمين أو الملاحدة من النصارى. مثلت في هذه المحاكم أقسى ما عرفته الإنسانية من أنواع التعذيب والظلم والإرهاق.

إن شارل مـارتيل وجنده كانوا لصوصًـا خرابًا متـوحشين بربريين. وأن عرب الأندلس لو تجـمعوا في فـتح أوروبا وبقوا فيـها قرنين، وأقـاموا فيـها مدنيتهم كـما فعلوا في إسبانيا لـكنَّا الآن متقدمين خمسة قـرون أكثر مما نحن عليه اليوم. ولا يسـتطيع عادٌّ أن يعد مقدار الدماء والدمـوع والفاقة والعدوان التي سببها ذلك الظفـر الذي ناله «شارل مارتيل» في السهول التي بين «تور - بواتيـه». وقد أسبـغت الأساطيـر الغربيـة المتأخـرة على يوم بواتييـه ثوبًا من الزخرف والخيال. وأسرفت في الإيهام لخطورته. أم المسلمون فلم يشيروا إليه كثيرًا. وقـد سموه «بلاط الشهداء» ويعتـبره النصارى الفرنجة بدء عهـد سعيد

صدوا فيه عدوهم الأبدي. فالمؤرخ الإنجليزي غبن "Gibbon" وبعض المؤرخين الذين أتوا بعده، ذهبوا إلى أنه لو ربح العرب تلك المعركة لكانت باريس ولندن موطنين تقام فيهما المساجد لا البيع التي تقوم اليوم. ولسمع فيهما القرآن يفسر في الجامعات كا إكسفورد وغيرها من مراكز العلم لا الكتاب المقدس كما يجري اليوم. ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار. ونرى أنها كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية وبين الشرق والغرب، ففي سهول «تور - بواتيه» فقد العرب سيادة العالم بأسره، وتغيرت مصائر العالم كله، وارتد تيار الفتح الإسلامي أمام الأمم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام أسوار القسطنطينية، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب وإخضاع النصرانية للإسلام. ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى لينفذ إلى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره إلى بلاط الشهداء. ولكنه أصيب غير بعيد بتفرق الكلمة. وبينما شغلت إسبانيا المسلمة بمنازعتها الداخلية إذ قامت فيما وراء البرنية إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة تهدد الإسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ.

أوروبا الغربية من سقوط روما إلى عظمة الإسلام

استطاعت الدولة الرومانية- إبان عظمتها- أن تستولي على جميع حوض البحر الأبيض المتوسط، وأن تكون الأراضي الواقعة غرب نهر الرين نهر الدانوب من قارة أوروبا تحت سيادتها وحكمها. ولكن منذ أواخر القرن الرابع الميلادي أخذت الشعوب الجرمانية المتبربرة تغزو الإمبراطورية الرومانية الغربية، وتستقر في أراضيها حتى قضت عليها. وسقطت روما 476 م. وزالت بسقوطها الإمبراطورية الرومانية الغربية. وقد قامت على أنقاض هذه

الإمبراطورية ممالك جرمانية كثيرة أهمها القوط الشرقيون بحوض الإدرياتيك. والقوط الغربيون بإسبانيا وجنوب فرنسا. والوندال بالمغرب العربي. والإفرنك (الفرنجة) بشمال فرنسا. وشيئًا فشيئًا أخذت معالم الحضارة الرومانية في الزوال، وسادت الأمية والجهالة. ودخلت أوروبا في العصور الوسطى، التي تبدأ من سقوط روما وتستمر نحو ألف سنة إلى استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية 1453م. وبذلك تدرك أن العصور الوسطى (عصور الظلام والجهالة والتأخر) لم تكن تصدق إلا على أوروبا. إذ العصور الوسطى هي التي ازدهر فيها الإسلام، وحمل مشعل الثقافة والرقي، وأضاء به أرجاء العالم، وأدى رسالة هي حلقة الوصل بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة[1].

المقاومة المسيحية في الشمال

كانت جيوش الفتح الإسلامي الأول قد أوغلت في المناطق الجبلية الصخرية الواقعة على سواحل البحر الكنتبري، ولم يهتم المسلمون بإقرار سلطانهم في الركن القصي الشمالي الغربي من شبه الجزيرة وهو المعروف بإقليم جليقية. على أن بعض القبائل البربرية استوطنت تلك الجهات. إلا أن المنازعات التي نشبت بين العرب والبربر أدت إلى مبارحة هؤلاء البربر لتلك المناطق من أجل الانضمام إلى أبناء جنسهم في الجنوب أثناء حربهم للعرب، وأدى هذا الانسحاب من غير هزيمة إلى أن يعود القوط الهاربون بعد سقوط دولتهم ومن التقى بهم من الأيبيريين إلى تلك الأرض الخلاء فيسكنوها ويعمروها، وهكذا استعاد هؤلاء نحو خمس شبه الجزيرة بغير قتال. ويسمي المؤرخون الإسبان هذا الحدث بحركة «الاسترداد» (Reconquista)، وهي

(1) د. محمد العروس، نفس المرجع، ص 197.

تسمية غير دقيقة، وإنما يمكن تسميتها ببداية المقاومة. وتتفق المراجع العربية وغير العربية على أن فلولا من القوط فرت إلى الشمال بعد هزيمتهم أمام العرب إلى أن اعتصمت بمنطقة جبلية في إقليم أشتوريش المطل على البحر الكنتبري. ويسمي العرب هذا الإقليم «صخرة بلاي» (Palayo) التي قصدها أمير قوطي يعتقد بأنه ابن أخ للذريق يدعى بلاي، وتحصن في قرية تدعى كانجس دي أونيس (Cangas de Onis)، وظهر أمر بلاي في أيام عنبسة بن سحيم الكلابي، واستطاع أن يدفع المسلمين عن معقله.

تقول المدونات المسيحية إنه أحرز انتصارًا على المسلمين في معركة يدعونها كوفادونجا (Cavadnoga) وقعت 99 هـ/ 718 م وأحاطوا هذه المعركة بفيض من المبالغات والتفاصيل الأسطورية واعتبروها بداية حركة «الاسترداد»، ويبدو أنها لم تكن إلا مناوشة متواضعة أثبت فيها بلاي صموده، غير أن لها مع ذلك أهمية لا مجال لإنكارها إذ كانت بداية لخروج هذا الزعيم من معقله وعمله على توسيع سلطانه حتى أصبحت له إمارة تشمل إقليم أشتوريش وكنتبرية وجزءًا من جليقية. وشغل المسلمون عنه بالفتنة الدائرة بين العرب والبربر فقوي مركزه وثبتت أقدام دولته. وعند وفاة بلاي في 119 هـ/ 737 م كما تقول المصادر المسيحية - أو 132 هـ/ 750 م كما يقول المؤرخون المسلمون - خلفه ألفونسو الأول (Alfonso I) ابن بطره (Pedro) دون كنتبرية وزوج ابنة بلاي. وحينما تراجع المسلمون البربر عن منطقة جليقية بسبب الفتنة كانت هذه فرصة سانحة انتهزها ألفونسو لتوسيع أملاكه بعد أن تراجعت سلطة المسلمين إلى حوض الدويرة (Rio Duers). منذ بداية غزو إسبانيا الإسلامية على عهد موسى وابنه عبد العزيز تم افتتاح الجزيرة جميعًا واستقرت الحاميات الإسلامية في أطرافها، كما دخل كثير من أهل البلاد في الإسلام ليتمتعوا بأحوال شخصية أكثر ملاءمة. إلا أن القضاء على المقاومة الوطنية لم يكن

كاملا إذ تبقت أقلية ضئيلة من كبار القوط وأعيان المملكة المنهارة. لحق هؤلاء بسكان أشتوريش الذين كانوا قد اعتصموا بسلسلة الجبال الشمالية المنيعة المعروفة بقمم أوروبا (Picas de Eurapa) وربما استقر بعض العرب الذين اشتركوا في هذه الحملات في أرض فرنسا بعد رحيل إخوانهم في السلاح وتركوا الإسلام واعتنقوا دين البلاد، فهذا ما يفهم من أسماء الأماكن والأعلام، وأن هذا هو أصل جماعة من يسمون هناك بالمور Maures أو الرازان Sasrasins والذين يوجدوا خاصة في الأوفيرن Auvergne والبروفنس Provence. تقول الرواية أن عدد هؤلاء كان حوالي 300 (ثلاثمائة) شخص، وأنهم اختاروا زعماء لهم هو الأمير القوطي بلاي Palayo (بالفرنسية Pelage) وكان أبوه أحد كبار بلاط الملك إجيكا Egica. عاشت هذه الجماعة في أول الأمر عيشة بائسة جعلت المسلمين يتركون أمر القضاء عليهم إلى الطبيعة، وحتى فكر بعض هؤلاء اللاجئين في عدم جدوى استمرار المقاومة فتركوا بقية العصبة. أما عن الحوادث التالية فهناك روايتان مختلفتان بعض الشيء: الرواية العربية منهما لا تتكلم إلا عن جماعة قليلة العدد من العصاة المعزولين تمامًا أوالمحرومين من المؤن، إذ ليس لديهم من طعام سوى عسل النحل الجبلي. هذه الرواية تقول أن المسلمين استنكفوا مهاجمتهم وأنهم تركوها لمصيرهم يموتون جوعًا أما الرواية النصرانية، وهي ثانيهما فهي تقول بأن المسلمين علموا بثورة اندلعت بين القوط بأشتوريش وأنهم أرسلوا لقمعها جيشًا على رأسه القائد علقمة ومطران إشبيلية أباس Oppas، وهذا الأخير أخ أو ابن للملك غيطشة (Witiza). التجأ بلاي إلى أحد الجبال واعتصم بكهف سانتا ماريا (Cueva Santa Maria) الذي سيطلق عليه فيما بعد اسم كافادونجا Cvadonga. وحاول أباس Oppas مفاوضة الثائر وأتباعه ولكن دون جدوى. وتقول الرواية أنه بفضل تدخل العذراء تمت المعجزة وهاجم الثوار الجيش

العربي وحطمـوه فاضطر الناجون إلى الانسحـاب بسرعة. وعندما بلـغ خبر الكارثة والي أشتـوريش وهو منوسة البـربري فزع وجلى عن مقـر ولايته في جيجون (Gijon) واتجه نحو ليون (Leon) ولكنه اغتيل بعد قليل. هذه الموقعة شبـه الأسطورية تعـتبر (الآن في شـبه جـزيرة أيبيـريا) أول مظاهرة للشـعور الوطني في إسـبانيا المسـيحيـة، وأول بشيـر بثمرة المجـهودات التي قـام بها الوطنيون للتحرر من سـلطان العرب والتي ستستمر حـتى نهاية القرن الخامس عشر. من ناحـية الشرق كانت ولاية بلاي تتاخم دوقيـة الكنتبري Duche de Cantabrie (في غرب البـرانس) التي لم تكن خاضـعة للمسـلمين والتي كان يحكمها ألفونس (Alphonse). تزوج ألفونس ابنة بلاي الذي ربما مات حوالي 737 م بعد أن ترك الحكم لابـنه فافلة Fafila الذي لن يعـمر أكثـر من سنتين وبذلك يتمهد الطريق أمام ألفونس ليتولى عرش أشتوريش، وبذلك تتضاعف قوتها. ألفونس الأول هذا هو المؤسس الحقيقي لمملكة أشتوريش وبعهده تنتهي الفترة الأسطورية من تاريخ هذه المملكة وتبدأ عهد التوسع الإقليمي أي حركة حرب الاسترداد المسيحية.

استمر نشاط ألفونس الحربي خلال 18 عامًا (39 - 757 م) ولكن يغلب على الظن أن ألفـونس الأول لم يكن إلا زعيم عـصبـة همه القـيام بـغارات للاستيلاء على الغنائم وليس لافتتاح أراض جديدة (رأي مضاد). ومهما يكن من أمر فإن موقف إسبانيا المسلمة المضطر على عهده كان من الأسباب الموافقة لتحقيق أهدافـه. إذ اهتم بالغارات والحملات فيمـا وراء البرانس، كما رأينا، وتركوا - إلى حد مـا - الضغط على شمال غرب الجـزيرة. هذا إلى أن عهد ألفونس الأول وافق ثورة البربر في إسبانيا الإسلامية. فإن البربر طردوا العرب من الأقاليم التي كـانت لهم فيها غالـبية السكان، ثم إنهم بعد ذلك ضـعفوا نتيـجة للهزائم التي لحـقت بهم. زيادة على ذلك كانت المجاعـة الكبرى التي

ألمت بالجزيرة منذ 132 هـ (750 م) وخاصــة بالجزء الشــمالي - الغربــي منها سببًا في هجــرة البربر بالجمــلة من هذه الأقاليم إلى المغــرب. هكذا وجدت جليقية (Galice) نفسها منفصلة عن بقية أراضي الإسلام ودخلت ضمن أملاك الملك الأشتوريشي. ومع مرور الوقت كــان ألفونس يضغط على البربر الذين يجلون عن البلاد ويضم أقاليمهم إلى أراضيه دون جهد كبير. وبذلك نزل من المناطق الجبلية إلى ســهول ليون، واستولى على أشــترقة (Astorga). واستمر في تقدمه حتى 754 م واستولى شيئًا فشيئًا على كل غاليسيا (Galice) وشمال البرتغال الحــالية والسفوح الجنوبيــة لامتداد البرانس الغربيــة التي عرفت باسم «قشتالة القــديمة»، ثم مناطق ألبة والقلاع (Alava) ومنطقة برغش. وأكثر من هذا ربما تمكن من الاســتقــرار - إلى حد مــا - في المناطق الواقعــة بين وادي الدويرة (Duera) والهضبــة الإسبانية الوسطى. ومن بين القــلاع التي سقطت بين يديه: (Lugo) لقش، وبرته (Porto) و(Vizeu) (شمــال البرتغــال) وبراقة (Braga) واشترقة وليون وأمايه وسموره Zamora وأكشوبه (Osna)، وشقوبيه (Segovia). في هذا الوقت كان والي قرطــبة العربي يوسف الفهري مــشغولا بالنزاعــات الداخلية التي أنهكت إســبانيــا المسلمة فلم تكن لديه الإمكــانيات لمواجهــة ذلك التقدم وإرســال بعض أهل الأندلس ليحلوا مــحل البربر الذين هاجــروا إلى المغرب العــربي. ولقــد أرسل في 138 هـ (755 م) حملــة ضد غاليــسيا ولكنــها فشلت. أمــا عن ألفونس فإنه ولم تــكن لديه قوات كافــية لاحــتلال الــبلاد غــيــر المأهولة التي دخلت تحت سلطــانه وبذلك ظلت هذه المناطق خاوية لعشرات من السنين. ومنذ ذلك الحين نشأت بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا المسيحية منطقة أشبــه بالمنطقة الحرام هي عبارة عن شريط غير مأهول يحده من الــشمال خط من القــلاع الإسلامــية التي ســميت بالشــغور. وعند وصول عبد الرحــمن الداخل إلى إسبانيا كان خط الحدود هذا يســير من جهة

النصارى من الـغرب إلى الشرق مع وادي الدويرة من مـصبـه حتى أكشـومه (Osma) ثم يتجه نحو الشـمال، ويدخل بلا البشكنس (La Vasconie). ومن جهة المسلمين كـان يمر شمال قوريه (Coria) وطلبيره وطليطلة ثم يصـعد نحو وادي الحجـارة وتطيلة (Tudela) وبنبلونة. وخلال بعض عـشرات من السنين انتزع من المسلمين ربع فتوحاتهم. وأصبحت مـدينة ليون هي العاصمة وأعيد بناؤها وبنيت المدن والقلاع شـيئًا فشـيئًا. هذه الأراضي التي استـعيدت على عهـد ألفونس الأول والتي سكنت على مر الأيام على عـهد خلفائه ستـصبح مجالاً عنيفًا للصراع بين المسيحيين والمسلمين بإسبانيا لمدة طويلة.

المقاومة المسيحية في أشتوريش بلايو الصخرة (Covadonga):

وكما رأينا فيما تقدم، فإن احتلال المسلمين لشبه جزيرة «أيبيريا» كان قد اكتمل بالفعل قبل اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير عام 716 م (97 هـ). ومن المحتمل - برغم عدم ورود أخبار تاريخية صريحة بهذا الخصوص - قيام المسلمين منذ هذا التاريخ بعمل التحصينات في الثغـور الواقعة بين «سبتمانية» و«جليقية». كـما يبدو أيضًا أن القسط الأعظم من سكان البلاد ترك المسـيحية طواعية وانضوى تحت لواء الإسلام لكي يتمـتع بكافة مميزات المسلم وحقوقه. ولهذا فلم يبق لـلمقاومـة سوى جيـوب صغيرة لـبعض وجهـاء مملكة القوط الزائلة. انضم هؤلاء النبـلاء لأهالي «أشتـوريش» الذين كانوا قد اعـتصـموا بالسلاسل الجـبلية العالية (المسـماة بالقمم الأوروبية) عندمـا هاجم موسى بن نصير إقليمـهم. ومن المؤكد أن أهالي «أشتوريش» (Asturias) قد عادوا تباعًا إلى ديارهم بعد أن تبين لهم عـدم جدوى المقاومة. ولذا فـإن النبلاء القوط - المنفـيين طواعيـة - هم الذين استـمـروا في المنطقة الوعـرة من «أشتـوريش» واختاروا من بينهم زعيـمًا عليهم يدي «بلايو» (Pelayo) - وهو ابن «فافيلا»

(Fafila) أحـد أشراف بلاط الملك القوطي «إخـيكا» - اتخـذ «بلابو» قـرية متواضعة في إقليم أشـتوريش تسمى «كانجاس دي أنيس» (Cangas De Anis) مقرًا له. أما عن الأحداث التي تلت ذلك قد وصلت إلينا روايتان متناقضتان:

تقول الرواية المسـيحية أن المسلمين عندمـا علموا بأخبار التـمرد أرسلوا للقضاء عليه جيشًا يقوده كل من علقمة و«أوباس» (Oppas) (ابن أو أخ الملك غيطشـة). فاضطر «بلابو» للهـرب إلى جبل «أوسيـبا» (Auseba) والاحتـماء بمغارة «سانتـا ماريا» (التي سيتـحول اسمها فـيما بعد إلى صـخرة «أبيدو» - (Covadonga). حاول «أوباس» التفاهم مع المتمردين وزعـيمهم لكن محاولته باءت بالفشل. وفي معـجزة سماوية، انقض المتمردون تتقـدمهم العذراء على الجيش المهاجم فقتلوا معظم رجـاله وأجبروا الباقين على الفرار. وعندما علم موسى - حاكم إقـليم أشتوريش المقيم في جـيحون (Gijon) - بأنباء الكارثة انتابه الهلع وأخلى قواته من الإقليم، لكنهم أخـذوا يتساقطون صرعى الواحد بعد الآخر بما فيهم الحاكم نفسه.

أما الرواية العربية فتتحدث عن عـدد ضئيل من المتمردين محاصرين من كل الجهـات، يعتـمدون في عـيشـهم على عسل النحل البـري لانقطاع الزاد والمؤن عنهم ويزدري المسلمون مجـرد التفكير في مهاجمتـهم مفضلين تركهم لمواجهة الموت جـوعًا. ومع أن الروايتين محل شك وارتياب إلا أن المسيـحية (لو استثنـينا مبالغتهـا في تقدير عدد المهاجـمين وما تحتوي عليـه من عناصر خـياليـة) تشتـمل - طبقًـا لرأي - «بارودبهـيجـو» - على بيانات مـحتـملة التصديق. على أية حال، فإن التـراث لم يحفظ لنا من مشروع مملكة «بلابو» سوى أحداث «صـخرة أبييدو» التـي جرت عام 718 م، وإن كان «سـانتشت ألبورنوس» (Sanhez Albornoz) يرفض هذا التاريخ - في دراسـته عن أصول

مملكة «أشتوريش» - ويرجئه لعهد عنبسة الذي تولى حكم إسبانيا في الفترة من 721 م إلى 726 م. وإن كان من الصعب الانحياز لإحدى الروايتين السابقتين إلا أن الحق كل الحق مع الذين يضفون اليوم قيمة اعتبارية كبيرة على هذه المعركة النصف أسطورية ويعتبرونها أول تجسيد للشعور الوطني على أرض إسبانيا المسيحية. وهي، بالإضافة إلى ما تقدم، بمثابة الشرارة الأولى لحرب استرداد أراضي شبه جزيرة أيبيريا التي ستستمر لنهاية القرن الخامس عشر بما يتخللها من فترات هدنة أو ركود.

ألفونسو الأول (Alfonso - I) وبداية الحروب الصليبية:

بعد موت «بلابو» عام 737 م في «كانجاس دي أنيس» خلفه ابنه «فافيلا» الذي لم يكن يفقه شيئًا واستمر في حكمه سنتين. مات «فافيلا» على إثر مهاجمة دب له، ودفن تمشيًا مع التقاليد القديمة لهذا الإقليم - مع زوجته «فروليبا» (Froleba) - بإحدى كنائس العاصمة الصغيرة لأشتوريش. وبعد موته انتقلت مقاليد الأمور في الإمارة الصغيرة إلى ألفونسو الأول (ابن دوق «كنتبريا»، وزوج إحدى بنات «بلابو») الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لمملكة «أشتوريش». ومع هذا الأمير سيسدل الستار - طبقًا لرأي «باروديهيجو» - على الحقبة نصف الأسطورية لتاريخ أشتوريش لتبدأ حقبة اتساع أراضي المملكة، أي «حرب الاسترداد». توجد معلومات محدودة عن طبيعة النشاط العسكري لألفونسو الأول طوال الثمانية عشر عامًا التي قضاها في الحكم (739 - 757 م). وبعض المؤرخين المعاصرين يعدونه مجرد زعيم عصابات لا يهمه الاستيلاء على أرض بقدر ما تهمه الأسلاب والغنائم؛ بينما يُنصِّبه آخرون رائدًا لحرب (الاسترداد) يخوضها وهو على وعي تام بأهمية الدور الذي يمثله. وبغض النظر عن اختلاف الآراء فيه، فإنه من باب إحقاق الحق

الإشارة إلى أن البلبلة التي كانت تخيم على إسبانيا الإسلامية قد خدمته كثيراً في تحقيق طموحاته، فشغل الحكام العرب بتجييش الجيوش وإرسالها إلى الجانب الآخر من البرانس أدى إلى تراخي قبضتهم على شمال غرب شبه الجزيرة، كما أن فترة حكم ألفونسو الأول قد صادفت وتزامنت مع تمرد بربر إسبانيا المسلمين. لقد استطاع البربر طرد العرب بسهولة من أقاليم كانوا يشكلون غالبية سكانها، لكنهم سرعان من ضعفوا نتيجة لهزائمهم المتتالية. وكما أشرنا كذلك من قبل، فإن الجوع والقحط اللذين ألهبا بسياطهما (مع بداية عام 750م - 132 هـ) شمال غرب إسبانيا قد أديا إلى هجرة البربر الجماعية لتلك الأقاليم والنزوح إلى المغرب. وبعد هجرتهم انفصلت «جليقية» تلقائيًا عن أراضي الإسلام وانضمت لتويج «تصغير تاج» ملك «أشتوريش» الذي كان يضايق البربر النازحين بحروب العصابات المستمرة لكنه لم يستطع بذل المزيد من الجهد حتى تتسع رقعة مملكته على حساب الأراضي الإسلامية.

هبط ألفونسو الأول من معاقله الجبلية إلى سهول «ليون» ليستولى على «أسترقة» (Astorga)، ثم استولى بعد ذلك في زحفه المتواصل على ما يلي: «جليقية» بكاملها، شمال ما يعرف الآن بالبرتغال، المنحدر الجنوبي لسلسلة جبال كُنتبريا، «باردوليا» (المسمى القديم لقشتالة العتيقة - Castilla la Vieja)، وعلى أراضي «ألبة» (Alava)، و«بوريبا» (Bureba) و«لاريوخا» (Larioja). ومن المحتمل أن يكون قد وصل وتمكن من إخضاع الإقليم الواقع بين وادي «الدويرة» والسلاسل الجبلية لوسط إسبانيا. ومن الثغور القوية التي سقطت في يده تشير المصادر المسيحية إلى ما يلي على الترتيب: «لك» (Lugo)، «توى» (Tuy)، «بورتو» (Oprto)، «براجا» (Braga)، «بازو» (Viseo)، «أستورقة، ليون، أمايا» (Amaya) «سمروة، سيمنكس» (Simancas)، «أشونة» (Osuna)، «شلمنقة»، «آيلة» (Avila)، «شيقوبية»

(Segovia)، «سيبولبيدا» (Sepulveda). خلال تلك الفترة كـان حاكم إسبانيا العربي (يوسف الفهري) مشغـولا بالنزاعات الداخلية ولم يتمكن من التصدي بفعـالية لهذا الزحف القـادم من الشمال، ولا إرسال مـسلمي إسبانيـا ليحلوا محل البربر النازحين للـمغرب العربي، ولذا لم تأت الحملة التي سـيرها عام 775 م (138 هـ) إلى «جليقيـة» بالثمار المرجوة. ومن جـهة أخرى، فلم يكن لدى ألفونسو الأول أيضًا القوات الكافية لشـغل المناطق شبه الخالية بعد رحيل سكانها وانتقـالها نظريًا لسلطته. وبهذا الشكل أصـبح يفصل منذ ذلك الحين بين إسبانيا المسلمة ومملكة أشتوريش شريط من الأرض شبه خال من السكان، أو مـا يمكن تسمـيـته «أرض بلا صـاحب» يحـدها من الشـمال «الماركـات» (Marcas) أو الثغور الأشتوريشية بينما تشكل الثغور الإسلامية حدها الجنوبي. ومن الآن فصـاعدًا سيتـحدث تاريخ شبه جـزيرة «أيبيريا» باستـمرار عن هذا الشريط الفاصل الذي سيكون مسرحًا مفتوحًا لمواجهات حربية يحاول فيها كل طرف وقف تقـدم الطرف الآخر عند وصـول عبـد الرحمن الأول كـان الخط الحدودي للمـسيحيين من الغـرب إلى الشرق يتمثل في مـجرى «الدويرة» من مصبه حتى مرتفـعات «أوسمه» (وخشمة – Osma) لكي ينعطف بعدها نحو الشمال إلى أن يصل إلى «بسكونية» (Vasconia). أما خط المسلمين الحدودي فكان يمر من شمـال «قلمرية» (Coimbra) بقليل حتى طليطلة (Toledo) لكي يصـعـد بعـدها نحـو «وادي الحـجـارة» (Guadalajara) و«تطيلة» (Tudela) و«بنبلونة». وستكون هذه الأرض التي استردها ألفـونسو الأول وخلفه محور النزاع الدموي بين المسلمين والمسـيحيين طيلة القرن الـسابق لعصر الهـجمات الديكتاتورية العامرية زمن الخلافة القرطبية[1].

(1) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص 77.

الحرب مع مملكة أشتوريش على عهد الحكم:

رغم امتداد ملك الحكم أكثر من ربع قرن فإنه كان مشغولا جدًا بقمع الثورات في ثغور مملكته أو الاضطرابات التي وقعت في عاصمته نفسها حتى أنه لم يكن في ظروف تسمح له، مثل والده هشام، بتوجيه الحملات كل صيف للجهاد في تخوم إسبانيا المسلمة، في اتجاه أراضي أشتوريش أو المنطقة الإسبانية من سبتمانيا الفرنجية. وهكذا تتفق فترة ملكه مع تقدم محسوس من جانب المسيحيين في الشمال الغربي خاصة وفي الشمال الشرقي للممتلكات الإسبانية الأموية على وجه الخصوص، وكذلك تراخي القوات الإسلامية في منطقة البرانس وجبال كانتبري.

وهناك بعض التفصيلات الدقيقة في تاريخ ابن حيان عن نشاط الحكم في أول حكمه ضد المملكة الأشتورية. هذه المعلومات التي لم تنشر بعد لا تتفق دائمًا مع النتائج التي وصل إليها المؤرخون المحدثون مثل Codera Barrau Dihigo - الذين استعملوا المصادر اللاتينية والعربية التي كانت تحت أيديهم حتى الآن فقط فابن حيان يسجل في الصيف التالي لولاية الحكم (180/ 796) حملة أولى لم يكن يوجد عنها سوى معلومات مقتضبة. قاد هذه الحملة عبد الكريم بن مغيث وسار ضد منطقة القلاع أي قشتالة القديمة. وصعد القائد المسلم في وادي الإبرة واستولى على قلعة قلهدة Calahorra ومن هناك أرسل جماعات الخيالة للاستطلاع نحو الشمال الغربي وخلفهم سار مع قواته يخرب البلاد التي يجتازها دون أن يقابل أية مقاومة، واستمر في تقدمه حتى ساحل بلاد Santander، ثم دار على عقبيه محملا بالغنائم التي استولى عليها. ومضت بضع سنوات دون قيام صائفة ضد أشتوريش: إذ اشتغل الحاكم بمؤامرات خفية (أدق) لخلعه من العرش فلم يرسل أية صائفة

وانتهز العـدو الفرصة وهاجم لشبونة. وربما استـولى ألفونس الثاني على هذه المدينة 182 (719) وأرسل بعثـة إلى شارلمان Ai - la - Chapelle لإبلاغه ذلك النبأ. ولكن احتلال المدينة كان عابرًا، إذ استـعاد المسلمون لشبونة - كما رأينا في - 193 (8 - 809): ولـم يكتف قـائد الحملة وهو ابن الأميـر بالاستـيلاء على مدينة مـصب تاجه بل أقـر النظام في البلاد الواقـعة إلى الشمـال حتى كويمبر Coimbre.

وفي 185 (801) حدثَ حـدثٌ عظيم إذ اسـتولى الفـرنج على برشلونة (وسيأتي ذلك مفصلا فيمـا بعد). وأرسل الأمير الأموي حملة (صائغة) على الأقل ضد ألبة والقلاع تحت قيادة أخيه معاوية. ولكن هذه الحملة كانت سيئة الحظ. وابن حيان يتفق بالنسبة للنتيجة مع المصدر اللاتيني الوحيد الذي ذكرها حتى الآن. انهـزم جيش قرطبة هزيمة مـنكرة، في شهر رمضـان (سبتمـبر - أكـتوبر) في أحـد مضـايق جبـال الكانتابـر ومن الصعب تحـديد مكانه (مع أرغنسون). وتمكن الأميـر معاوية بصعـوبة بعد أن فقد خيـر قواده من العودة إلى قرطبة، حيث مات كمدا في غضون عدة شهور.

بعد ذلك بسنتين أي في 187 (803) قام عبد الملك بن مغيث الذي كان قد عفـا عنه هو وأخوه عبـد الكريم إثر اختلافهـما القصيـر مع الحكم الثاني بحملة صيفية في ألبة والقلاع (قشتالة القديمة) ومر بسرقسطة قبل أن يعود إلى قرطبـة. وأن اختصار المؤرخ فـيما يخـتص بهذه الحملة ليـدعو إلى الظن أن نتائجها كانت سلبية. وفي السنوات الخمس التالية ليس هناك ذكر لأي محاولة ضد المـملكة الأشتـورشية وذلك حـتى 192 (808) حيث تـوجد معلـومات مختصرة عن صائفة ضد غاليسيا قادها أحد أبناء الأمير وهو هشام: ولقد سار الطابور الإسلامي لأرض البرتغال الحاليـة وكان مظفرًا. وبعد ذلك ليس هناك

ذكـر لحملة جـديدة في الشـمال - الغـربي لمدة 8 سنوات أخرى. وفي هذه الأثناء لم يتـحـاشَ الأشتـوريشـيون أنفـسـهم القيـام بغـارات في الأراضي الإسلاميـة. هذه الغارات لن تثير رد فـعل هجومي إلا في 200 (816). ففي هذه السنة قرر الحكم أن يرسل ضد الأشـتوريشيين جيشًا قـويًا بغرض (القيام بمظاهرة) يثبت بها هيـبته خلال المنطقة التي تقطنها قـبائل الباسك التي أعلنت خضوعها حديثًا لألفونسو الثاني. إذ أن بنبلونة عاصمة بلاد الباسك كانت قد انسلخت من سلطان المسلمين منذ 182 (789): إذ قتل أهل المدينة ممثل السلطة الأمويـة وهو مطرف بن موسى بن قـيس واختـاروا واحدًا منهم كـرئيس لهم وهو يسمى فلاسكة Velasco وكانت العمليات العسكرية التي قام بها الحاجب عبد الكريم بن مـغيث موجهة خـاصة ضد Velasco هذا والباسك في تخوم ألبة، هذه العمليات امتدت فيما بعد حتى أطراف قشتالة القديمة. وانتهى الأمر بأن التقى القائد المسلم في هذه المنطقة بجند ألفونس الثاني وقاتلهم مدة 3 أيام متتاليـة. واضطر الأشتوريشيون إلى القتال وهم ينسحـبون بعد أن ألحقت بهم خسائر فادحـة، فقد كان من بين القتلى، كما يحـدد المؤرخ، خال لألفونسو الثاني، هو Garcia ابن لب Lope وابن إحدى أخوات الملك برمده Bermudo I وكذلك أحد عظماء الباسك المـشهورين والمسمى شنجه Sancho. ورغم ذلك فقد نجح النصارى وهم ينسحبون في أن يقيموا أمـام متابعيهم حاجزًا طبيعيًا: هو ممر ضيق يجري في قاعة مجرى ماء سريع وحيث يوجد كثير من العقبات المانعة من جـذوع الأشجار إلى الحـفر. ولهذا عدل المسلمـون عن متابعـتهم وعادوا إلى الأراضي الإسلامية في أول ذي الحجة 200 (يونية 816).

صائفة 200/ 816 المهمة هذه يرويها مـؤرخون آخرون من العرب ولكن بتفـصيلات أقل من تلك التي يوردها ابن حـيان كما يذكـرها المصدر اللاتيني المعروف Chrenique de la Najera ou pseudo. واعتمادًا على هذه المصادر غير

الدقيقــة وذلك فيما يختص بــغرض هذه الحملة ظن دوزي وBarrau - Dihjo, Codera أن وجهتها كانت غاليسيا بينما كانت في الحقيقة بلاد الباسك وقشتالة القديمة. ومنذ الآن أصبح مــا اقترحوه من التعــرف على الاسم العربي لمجرى الماء المسمى وادي أرون بأنه Naharon وكذلك المحــلة الواقعــة بجوار Naron بأنها قرية غاليــسية في منطقة Ferrol لا قيمــة له. إذ يجب البحث عن مكان الوقعة والأسمــاء المتشابهة بعيدًا عن ذلك نحو الشــرق، على السفوح الجنوبية للسلاسل الكانتابرية، (Cordillere cantabroyue)، غير بعــيد عن أعالي وادي الإبرة، وهناك أمل في أن يكون الأمر خاص بـ أرون Open، وهي قرية قريبة من مدينة Miranda de Ebro الحديثة، ومن مضيق Pancorvo الضيق والذي يمر فــيه، تحت طريق السكة الحــديد من أيرون Irun إلى مــدريد، حيث الســيل المسمى Oroncillo. كانت صــائفة 200/ 816 هي آخر حملة قــام بها الحكم ضد الأشتوريشيين والباسك ومرت السنوات العشر الأخيرة من حكمه دون أن يظهــر أي نشاط عســكري في الشمــال الغربي وربما كــان ذلك نتيــجة لعــقد الهــدنة. وفي هذه الفتــرة كان قــد سبق أن أوقف الصــراع ضد الإفــرنج في الشمال الشرقي منذ 3 سنوات.

الهجوم الإفرنجي على برشلونة وطرطوشة:

بعد جلوس الحكــم الأول على العرش بـ 5 سنوات أي في 185 (801) وقعت برشلونة تحت حكم الإفرنج. وكان فقدها ضربة شديدة لإسبانيا المسلمة التي لن تستطيــع استعادتهــا إطلاقًا بعد ذلــك. ولهذا السبب يكتــفي الكُتَّاب العرب (الذين يتفقون على التاريخ) بذكر سقوط عاصمة كاتالونيا المستقلة دون إسهاب. (فهم يعتــصمون كما كانت العادة بالنسبة لهم، بالاخــتصار المقصود في كل مرة يسجلون فيها على حساب الإسلام هزيمة خطرة أو فقدان أي جزء

من أراضيه). ويروي مقتبس ابن حيان بشكل غير كاف من حيث الفصيلات كما كنا نفضل أخذ برشلونة، إلا أنه يعرض بعض المعلومات التي لم تكن معروفة إلا عن طريق التاريخ الكارولنجي Historiogra Carolingienne، ذكر هذه المعلومات في حوليات المؤرخ العربي لا تدع مجالا للشك في أصالتها. وهذا هو ما تذكره الرواية الفرعية كما تخرج من الشواهد التي تكمل بعضها بعضًا (مثل Annales وحياة Hludowico) Louis le Pieuk de l,Astronome Vita) ومدائح (Panen gurique) هذا الملك الشعرية التي نظمها Ermoldus) Nigellus) Ermold le Noiraud: في السنوات الأخيرة من القرن الثامن، ذهب عم الحكم (وهو عبد الله الذي ذكرنا خصومته وعصيانه إلى Aix - la - Chaplle وعرض على شرلمان مساعدته من أجل حملة تخرج من جارندة Gerene ويكون هدفها برشلونة وما وراء منطقة دلتا الإبرة. وفي نفس الوقت أقام ألفونس الثاني ملك أشتوريش بإبلاغ الملك الإفرنجي بأنه مستعد للاعتراف بسيادته وبمساعدته إذا ما قام بحملة فيما وراء البرانس وأخيراً قام والي برشلونة المسلم وهو سعدون Zado أو Zato في 181/ 797 برحلة إلى Aix - la - Chaplle وأعلن أن مدينة ستخضع لأول طابور إفرنجي يتقدم أسوارها. هذه الوعود الحلوة ذكرت شارل بمثيلاتها التي جعلته يقرر حملته التعسفية (كما سبق) التي قررها ضد سرقسطة 778، إلا أنه كان يرغب في أن يثأر بانتصار لامع للكارثة التي ألحقها الكفار قبل 4 سنوات على ضفاف الـ Crbieu يتابعه المخلص Guillen دوق تولوز الذي فتك بقواته عبد الملك بن مغيث. وهكذا تحفظ في رده وظل متردداً. وذلك حتى 798 عندما تقرر في اجتماع عقده ابنه لويس ملك أكيتين بتولوز وبحضور ممثلي زعيم سرقسطة الثائر، بهلول بن مرزوق، القيام بحملة في اتجاه الأراضي الإسلامية. هذه الحملة التي ليس لها أي صدى في أي تاريخ عربي، كانت موجهة بحذر

ولهدف محدود: إذ اكتفى الإفرنج باحتلال المنطقة الجبلية الواقعة بين جارندة Gerone وأعالي وادي السجر Seger الذي يسير بحذاء قلاع Ausona (وهي Vich اليوم) وCaserras وCrdona. السنة التالية يصاحب لويس والمدة في ساكس Saxe، ولا يعود إلى أكيتين إلا سنة 800 وبينما يذهب شارل إلى روما لكي يتتوج إمبراطوراً يسير ابنه ليخرب مدينتين إسلاميتين من مدن الحدود هما لاردة Heride التي يخرب تحصيناتها ووشقه Huesca التي كان بهلول، الذي خان الفرنجيين، قد طرد منها عبد الله المطالب بالعرس. وأخيراً عندما خان سعدون Zado في صيف 801 يدوره نقرر الهجوم على برشلونة.

وبيمنا كان الجند من الفرنجة يقومون بتخريب المنطقة وحرق المحاصيل، كانت هناك فرقة من القوط يقودها من يسمى Bera تقوم بحصار المدينة نفسها. ونظراً لنقص المعدات سيطول هذا الحصار لمدة سنتين، كاملتين. (وأم لويس بالاتفاق مع شرلمان بإرسال النجدات من قوات أكتين والـ Provencales, gasconnes والـ burgondes تحت قيادة مهرة القواد مثل Rostains دوق جارندة وGuillen دوق تولوز وضيقت هذا الحصار على برشلونة. وطلب Zado أي سعدون أمير المدينة التربي النجدة من قرطبة، ولكن الجيش الذي سار للنجدة غيَّر من طريقه بالنسبةِ لهدفه الأول وذهب للقيان بغارات في ألبة. وظهرت أخيراً على برشلونة مظاهر الإجهاد. وأتى لويس نفسه لتسلم المدينة التي استسلمت 803 حسب تاريخ (187 هـ) La Chronigue de Moissac والفضل الرئيسي لرواية سقوط برشلونة القصيرة حسب تاريخ ابن حيان هو أنها أكدت وجود الوالي Zado وأعطت اسمه العربي الحقيقي وهو سعدون الرعيني. ويصرح المؤرخ بأن هذا القائد طلب المعرفة دون جدوى من الزعماء المسلمين المجاورين، وأنه قاوم مدة سنتين، وأخيراً اضطر إلى تسليم المدينة 185 (801). وفي هذه الحالة ينبغي أن يكون الحصار قد بدأ سنة 183 (779).

وأخذت برشلونة منذ ذلك الحين، كما يضيف أخيراً المؤرخ العربي، مكان جارنده Gerone كمركز متقدم (رابطة) للقوة الفرنجية أمام الأراضي الإسلامية. وسمح الاستيلاء على برشلونة للويس ملك أكيتين تنظيم الثغر الإسباني Marche d, Espagna أي المنطقة الفرنجية الواقعة فيما وراء البرانس لأول مرة. ورغم ذلك يأخذ كونت برشلونة Bera الذي كان يحكم المدينة منذ عودتها إلى المسيحية لقب مركيز هذا القطاع إلا في 817. ويجب الانتظار حتى 865 عندما يعطي Charles le Chau ve للثغر الإسباني شكله السياسي والذي سيتمثل في كتالونيا المستقبلة. وابن حيان في سنوياته عن عهد الحكم يلزم السكوت بعد أن يشير إلى أخذ برشلونة وذلك فيما يختص بالعلاقات العدائية أو السلمية بين الفرنج والمسلمين حتى 191 (807). ففي هذه السنة يقول أن شرلمان - الذي يسميه قارله بن ببين - عقد الهدنة مع أمير الأندلس - ويضيف إلى ذلك أن هذه الهدنة كانت معدة منذ ولاية الحكم وأن شروط الاتفاق كانت موضوعًا لمناقشة طويلة، عن طريق عدد من السفارات المتبادلة.
أما عن السبب الذي يعطيه المؤرخ المسلم عن عقد هذه الهدنة فهو غير متوقع إلى حد ما: فهو يقول أن الإفرنج قلقوا لنشأة المملكة التي أسسها العلوي إدريس الأول بالمغرب (بمراكش) وخافوا من عقد حلف هجومي بين هذا الأمير وأمير قرطبة ضد النصرانية الغربية. ما مدى صحة هذه النظرية المؤكدة؟ إذا كانت الهدنة حدثت نتيجة لطلب الفرنج، فيمكن افتراض أن الحكم الأول ربما طلب مقدمًا استعادة برشلونة. والحقيقة أن ابن حيان يحاول تبرير الهدنة التي طلبها الحكم نفسه دون شك، كما أنه لا يشك في أن الأمر يتعلق بهدنة الـ 3 سنوات التي عقدت فيما بعد 812 حسب ما تتفق عليه الحوليات الإفرنجية. إذ أن توقيت المقتبس فيما يتعلق بهذه الفترة يعتبر مائعًا بعض الشيء: فالمؤرخ يقول أن شرلمان توفى في نهاية 191 (خريف 807) بدلا من

814، ويجعل ابنه لويس مسئولا عن خرق الهدنة. إذ يقوم لويس في الصيف التالي بحملة في اتجاه الإبرة. وإذا صدقت رواية المنجم Astrnome يكون لويس قد قام بثلاث حملات ضد طرطوشة: الأولى بين 804 و807، والثانية في 808، والثالثة في 809. وأن الحملتين الأوليين كانتا دون نتيجة أما الأخيرة فإنها انتهت بسقوط المدينة. هذا النجاح الذي لا يتكلم عنه المؤرخون الفرنج الآخر. كان موضع مناقشة المؤرخين المحدثين وتدل الظواهر على أنه غير صحيح ففي 192 هـ (718 م) يتجه لويس نحو طركونة Tarragone وطرطوشة ولكنه يضطر إلى الارتداد أمام ابن الأمير (الولد) عبد الرحمن (الثاني)، وكذلك كان الأمر في 193 هـ (809 م) حيث انتصرت القوات الإسلامية. وهكذا اضطر الفرنج إلى التخلي عن فكرة فتح طرطوشة التي ظلت قلعة الإسلام الأمامية في مقابل الثغر الفرنجي حتى آخر عهد الخلافة الأموية. وبينما فشل الفرنج في مهاجمة وشقة 812 م قامت قوات الحكم بغارة هامة على ثغرهم برشلونة 197 هـ (813) وربما تمت غارة أخرى في السنة التي تليها (199 هـ)، وانتهى القتال بكارثة بالنسبة للفرنج الذين تداعت صفوفهم أمام هجمات فرسان المسلمين. وألحقت الخيالة الإسلامية بالأعداء خسائر فادحة وبذرت الرعب في قلوبهم مما زاد من هيبة الأمير الأموي، ولو أن ذلك لم يكن كافيًا لاستعادة برشلونة. أما عن أعمال الحكم بن هشام (الذي توفى 206 هـ/ 822 م) على الجملة فتتلخص - إلى جانب ما ذكرناه من تهدئة الثورات والجهاد ضد الأعداء في الثغور - في أنه قوى الأسرة الأموية في إسبانيا الإسلامية، كما أنه بدأ في تمدين إسبانيا الإسلامية واستقبال التيارات العلمية، والفكرية من المشرق العباسي بفضل رحلات الحج وأخذ العلم، الأمر الذي ستظهر نتائجه على عهد ابنه عبد الرحمن الثاني عندما تفتح أبواب إسبانيا الإسلامية على مصاريعها لاستقبال تيار الحضارة البغدادية.

الزلاقة

بطحاء الزلاقة من إقليم بطليوس من غرب الأندلس، فيها كانت الوقيعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية عظيم الجلالقة أذفونش بن فزدلند عهيد المعتمد محمد بن عباد، وكان ذلك في الثاني عشر من رجب عام 479 هـ. وكان السبب في ذلك فساد الصلح المنعقد بين الطاغية وبين المعتمد، فإن المعتمد اشتغل عن الضريبة في الوقت الذي صارت عادته يؤديها فيه، بغزو ابن صمادح المرية، واستنفاذه في يديه بسبب ذلك، فتأخر لأجل ذلك أداء الإتاوة عن وقتها، فاشتاط الطاغية غضبًا، وتشطط فطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، وأمعن في التجني، فسأل في دخول امرأته القمطيجة إلى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها، حيث أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة، لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه، معظمه عندهم، عمل المسلمون عليها الجامع الأعظم، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة، تنزل بها فتختلف منها إلى الجامع المذكور، حتى تكون تلك الولادة بيّن طيب نسيم الزهراء، وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع، ورغم أن الأطباء، أشاروا عليه بالولادة في الزهراء، كما أشار عليه القسيسون بالجامع، وسفر بذلك بينهما يهودي، وكان وزيرًا لابن فرذلند، فتكلم بين يدي المعتمد ببعض ما جاء به من عند صاحبه، فأيأسه ابن عباد من جميع ذلك، فأغلظ له اليهودي في القول، وشافهه بما لم يحتمله، فأخذ ابن عبادة محبرة كانت بين يديه، فأنزلها على رأس اليهودي، فألقى دماغه في حلقه، وأمر به فصلب منكوسًا بقرطبة.

واستفتى ابن عباد الفقهاء لما سكت عنه الغضب، عن حكم ما فعله باليهودي، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك، لتعدي الرسول

حدود الرسالة إلى ما يستوجب له القتل، إذ ليس له أن يفعل ما فعل، وقال للفقهاء حين خرجوا: إنما بادرت بالفتوى خوفًا أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجًا! وبلغ الفنش ما صنع ابن عباد، فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية، ويحصره في قصره، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلبًا من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب إسبانيا الإسلامية، ويغير على تلك التخوم والجهات، ثم يمر على لبلة إلى إشبيلية، وجعل موعده إياه طريانة للاجتماع معه، ثم زحف ابن فرذلند بنفسه في جيش آخر عرمرم، فسلك طريقًا غير طريق صاحبه، وكلاهما عاث في بلاد المسلمين وخرب ودمر، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم، قبالة قصر ابن عباد، وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زاريا عليه: كثر بطول مقامي في مجلس الذبان، واشتد علي الحر، فألقني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عني! «فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية، في أيدي الجيوش المرابطة، تروح منك، لا تروح عليك، إن شاء الله! «فلما ترجم لابن فرذلند توقيع ابن عباد في الجواب، أطرق أطراق من لم يخطر له ذلك ببال. وفشا في إسبانيا الإسلامية خبر توقيع ابن عباد، وما أظهر من العزيمة على إجازة الصحراويين والاستظهار بهم على ابن فرذلند، فاستبشر الناس، وفتحت لهم أبواب الآمال، وانفرد ابن عباد بتدبير ما عزم عليه من مداخلة يوسف بن تاشفين، ورأت ملوك الطوائف بإسبانيا الإسلامية ما عزم عليه من ذلك، فمنهم من كتب إليه، ومنهم من شافهه. كلهم يحذره سوء عاقبة ذلك، وقالوا له: الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد! فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلا: رعي الجمال خير من رعي الخنازير! أي أن كونه

مأكولا لابن تاشفين أسيرًا يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقًا لابن فرذلند، أسيرًا يرعى خنازيره في قشتالة، وكان مشهورًا برزانة الاعتقاد. وقال لعزاله ولوامه: يا قوم أنا من أمري على حالتين، حالة يقين وحالة شك، ولابد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى ابن فرذلند ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا علي، ويمكن ألا يفعلا، فهذه حالة الشك. وأما حالة اليقين، فهي أني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله، وإن استندت إلى ابن فرذلند أسخطت الله، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه! وحينئذ أقصر أصحابه عن لومه. فلما عزم خاطب جاريه المتوكل عمر بن محمد صاحب بطليوس، وعبد الله بن حبوس ابن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة، يأمرهما أن يبعث إليه كل واحد منهما قاضي حضرته، ففعلا، ثم استحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم، وكان أعقل أهل زمانه، فلما اجتمع القضاة عنده، بإشبيلية، أضاف إليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون، وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف، وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى ابن زيدون ما لابد منه في تلك السفارة، من إبرام العقود السلطانية. وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور إسبانيا الإسلامية، مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته، ووزراء دولته، فيستمع إليهم، ويصغي لقولهم، وترق نفسه لهم، فما عبرت رسل ابن عباد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد، وقد أذن صاحب سبتة بقصده الغزو، وتشوقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس، وسأله أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز، فتعذر عليه، فشكاه يوسف إلى الفقهاء، فأفتوا أجمعين بما لا يسر صاحب سبتة. ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم، وأكرم

مثواهــم، وجددوا الفتوى في حق صــاحب سبتة، واتصل ذلك بابن عــباد، فوجه من إشبيلية أسطولا نحو صاحب سبتة، فانتظمت في سلك يوسف، ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات، ثم انصــرفت إلى مرسلها. ثم عبر يوسف البحر عبورًا هنيئًا، حتى أتى الجزيرة الخـضراء، ففتحوا له، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافــات، وجعلوا سماطًا أقاموا فيــه سوقًا، جلبوا عليه من عندهم من ســائر المرافق، وأذنوا للغزاة في دخول البلد، والتــصرف فيها، فامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين وتواصلوا بهم خيرًا. فلما عبر يوسف وجميع الجيوش، انزعج إلى إشبيــلية على أحسن الهيئات، جيشًا بعد جيش، وأمــيرًا بعد أمير، وقبــيلا بعد قبيل، وبعث المعتــمد ابنه إلى لقاء يوسف، وأمر عمار البلاد بجلب الأقوات والضيافات، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه، وتواردت الجيوش مع أمرائها في إشبيلية، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبــيلية في مائة فارس ووجوه أصحــابه، فأتى محلة يوسف فركض نحو القوم وركضوا نحوه، فبــرز إليه يوسف وحده، والتقيا منفردين، وتصافحا وتعانقا، وأظهــر كل واحد منهما المودة والخلوص، فشكر نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحــمة، وبشرا أنفسهما بما استــقبلاه من غزو أهل الكفر، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، مقربًا إليه وافترقا، فعاد يوسف لمحلته، ورجع ابن عباد إلى جهــته، ولحق بابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وألطاف، أوسع بهــا محلة ابن تاشــفين. وباتوا تلك الليلة. فلما صلــوا الصبح ركب الجمــيع، وأشار ابن عــباد على يوسف بالتــقدم إلى إشبيليــة، ففعل، ورأى الناس من عزة سلطانه مــا سرهم، ولم يبق من ملوك الطوائف بــالأندلس إلا من بادر وأعــان وخـــرج وأخــرج، وكــذلــك فــعل الصحراويون مع يوسف بكل صقع من أصقاعه، رابطوا وصابروا. ولما تحقق ابن فرذلند جــواز يوسف، استنفر جــميع أهل بلاده وما يليهــا، وما وراءها،

ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والأفرنجية وما يليهم ما لا يحصى عدده، وجعل يصغي على أبناء المسلمين متغيظًا على ابن عباد جافيًا ذلك عليه، متوعدًا له. وجواسيس كل فريق مترددون بين الجميع، وبعث ابن فرذلند إلى ابن عباد: أن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده، وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعبًا، أمضي إليكم، وألقاكم في بلادكم، رفقًا بكم، وتوفيرًا عليكم. وقال لأهل وده ووزرائه: إني رأيت أن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي، فناجزوني بين جدرها، وربما كانت الدائرة علي، فيكتسحون البلاد، ويحصدون من فيها في غداة، ولكن أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صون لبلادي، وجبر لمكاسري! وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون منهم في وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها!.

ثم برز بالمختار من أنجاد جموعه على باب دربه، وترك بقية جموعه خلفه، وقال حين نظر إلى ما اختاره من مجموعه: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء. فالمقلل يقول: كان هؤلاء المختارون من أجناده أربعين ألف دارع، ولابد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان، وأما النصارى فيتعجبون ممن يزعم ذلك ويقوله. واتفق الكل أن عدة المسلمين كانت أقل من عدة المشركين. ورأى ابن فرذلند في نومه كأنه راكب على فيل، فضرب نقيره طبل فهالته رؤياه، وسأل عنها القساوسة والرهبان فلم يجبه أحد، ودس يهوديًا إلى من يعلم تأويلها من المسلمين، فدل على عابر فقصها عليه، ونسبها إلى نفسه، فقال له العابر: كذبت! ما هذه الرؤيا لك، ولابد أن تخبرني من صاحبها وإلا لم أعبرها لك! فقال له: اكتم، ذلك هو الفشن بن فرذلند!

فقال العابر: قد علمت أنهـا رؤياه ولا ينبغي أن تكون لغيره، وهي تدل على بلاء عظيم، ومصيبة فـادحة، تؤذن بصلبه عـما قريب، أمـا النيل فقـد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل]، وأما ضـرب النقيرة فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ⑧ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨﴾ [المدثر]، فانصـرف اليهودي إلى ابن فرذلند وجـمجم له وذكر له مـا وافق خاطره ولم يفسـرها له. ثم خرج ابن فرذلنـد ووقف على الدروب، ومال بجيـوشه إلى الجهـة الغربية مـن بلاد الأندلس، فتقـدم يوسف فقصـده، وتأخر ابن عـباد لبـعض الأمر، ثم انزعـج يقفـو أثره بجـيش فيـه حمـاة الثـغور، ورؤسـاء الأندلس، وجعل ابنه عبد الله على مقدمتـه وسار وهو يتفاءل لنفسه، مكملا البيت المشهور (كامل):

لابد مـن فـــرج قـــريب	يأتيك بـالعـجـب العـجـيب
غـــزو عـليك مـــبـــارك	سـيـعـود بـالفـتح القــريب
لـله ســـعـــدك أنــه	نـكس عـلـى دين الـصـلـيب
لابـد مـن يـوم يـكـــو	ن أخـــا له يـوم القـلـيـب

ووافت الجيوش كلها بطليوس، فأناخوا بظاهرها، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عـمر بن مـحمد فلقـيهم بما يجب من الأقـرات والضيـافات، وبذل مجهـوده، ثم جاءهم الخبر بشـخوص ابن فرذلند إليهم، ولما ازدلف بـعضهم إلى بعض، أذكى المعتـمد عيـونه في محلات الصـحراويين خوفًـا عليهم من مكايد ابن فرذلند، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قبل أن الرجل من الصـحراويين كان يخرج عن طريق مـحلاتهم لبعض شأنه، أو لقـضاء حاجتـه، فيجـد ابن عباد بنفـسه مطيفًـا بالمحلة بعد ترتيب الكراديس من خيل على أفـواه طرق محلاتهم، فـلا يكاد: الخارج منهم عن المحلة يخطئ إذ ذاك من لقاء ابن عباد لكثرة تطوفه عليهم.

كتب يوسف إلى ابن فرذلند يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو يأذن بحربه فامتلأ غيظًا وعتا وطغًا وراجعه بما يدل على شقائه، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، وخرجوا يتبايعون على الموت، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والعباد يعظون الناس ويحرضونهم على الصبر، ويحذرونهم الفرار، وجاءهم الطلائع بخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، وهو يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون قد أخذوا مصافهم، فكع ابن فرذلند ورجع إلى أعمال الخديعة، ورجع الناس إلى محلاتهم، وباتوا ليلتهم، ثم أصبح يوم الخميس فأخذ ابن فرذلند في أعمال الحيلة، فبعث لابن عباد يقول، غدًا يوم الجمعة وهو عيدكم، وبعده الأحد وهو عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت! فعرف المعتمد بذلك يوسف، فقال: نعم! فقال له المعتمد: هذه خديعة من ابن فرذلند! إنما يريد غدر المسلمين! فلا تطمئن إليه، وليكن الناس على استعداد له طول يوم الجمعة كل النهار! وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات، خائفين من كيد العدو، وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيهي الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي (وكان في محلة ابن عباد) فرحًا مسرورًا، يقول أنه رأى النبي ﷺ فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غد وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد، فبعث إلى يوسف فخبره بها تحقيقًا لما توقعه من غدر ابن فرذلند، فحذروا أجمعين، ولم ينفع ابن فرذلند ما حاوله من الغدر. ثم جاء في الليل فارسان مع طلائع المعتمد، يخبران أنهما أشرفا على محلة ابن فرذلند وسمعا ضوضاء الجيوش، واضطراب الأسلحة. ثم تلاحق بقية الطلائع محققين بتحرك ابن فزد لند، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلة ابن فزدلند يقولون: استرقا السمع الساعة فسمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون، وإن كانوا

أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فأقصدوه واهجموا عليه، واصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صادقتموه الحملة! وعند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر بن القصيرة إلى يوسف يعرفه بإقبال ابن فرذلند، ويستحث نصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين، فعرفه بجلية الأمر، فقال له: قل له إني سأقرب منك إن شاء الله تعالى. وأمر يوسف بعض قواده أن يمض بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارًا، ما دام ابن فرذلند مشتغلا مع ابن عباد.

انصرف ابن القصير إلى المعتمد، فلم يصله إلا وقد غشيته جنود ابن فرذلند، فصدمهما ابن عباد صدمة قطعت آماله، ولم يكشف له، فحميت الحرب بينهما، ومال ابن فرذلند على المعتمد بجموعه، وأحاطوا به من كل جهة فاستحر القتل فيهم، وصبر ابن عباد صبرًا لم يعهد مثله لأحد، واستبطا يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب، واشتد البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون، وساءت ظنون أصحابه، وانكشف بعضهم، وفيهم ابنه عبد الله، وأثخن ابن عباد جراحات، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته، حتى وصلت إلى صدغيه، وجرحت يمنى يديه، وطعن في أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قدم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت، ويضرب يمينًا وشمالا، وتذكر في تلك الحالة ابنًا له صغيرًا، كان مغرما به تركه بإشبيلية عليلا، اسمه العلاء، وكنيته أبو هاشم، فقال (متقارب):

أبا هاشم هشمتني الشفار	ولله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج	فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد، من قواد ابن تاشفين، داود بن عائشة، وكان بطلا شـهمًا، فنفس بمجيئه عن ابن عباد، ثم أقبل يوسف بعد ذلك، وطبوله تصدع الجو، فلما أبصره ابن فرذلند وجه أشكولته إليه، وقصده بمعظم جنوده، وقد كان عمل حساب ذلك من أول النهار، وأعد له هذه الأشكولة، وهي معظم جنوده، فبادر إليه يوسف وصدمـهم بجمعه فردهم إلى مركزهم، وانتظم به شمل ابن عـباد، ووجد ريح الظفـر، وتباشر بالنصر، ثم صـدقوا جمـيعًا الحـملة، فتزلـزلت الأرض بحوافر خـيلهم، وأظلم النهار بالعـجاج والغبار، وخاضت الخيل في الدماء، وصبـر الفريقان صبرًا عظيمًا، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحـمل معه حملة نزل معها النصـر، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الـفئتين، فصدقوا الحملة، فانكشف الطاغية، ومر هاربًا منهزمًا، وقد طعن في إحـدى ركبتيه طعنة بقي أثرها بقية عمره، فكان يخمع منهـا، فلجأ إلى تل كان يلي محلته في نحو الخـمسمائة فارس كلهم مكـلوم، وأباد القتل والأسر من عـداهم من أصحـابهم، وعمل المسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها، وابن فرذلند ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة، فلا يرى إلا نكالا محيطًا به وبأصحابه.

وأقبل ابن عباد على يوسف فصـافحه وهنَّأه وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف مقامـه، وحسن بلائه وجميل صـبره، وسأله عن حاله عندمـا اسلمته رجاله بانهزامـهم عنه فقال: هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليـخبروك! ولما انحاز الطاغيـة بشرذمته، جـعل ابن عباد يحرض على اتباع الـطاغية، وقطع دابره، فـأتى ابن تاشفين واعـتذر بأن قـال: لو اتبـعناه اليوم لقي في طريقـه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين، فيهلكهم، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحـابنا، ويجتمعـوا بنا، ثم نرجع إليه فنحسم داءه، وابن عـباد يرغب في استعجـال أهلاكه ويقول: إن فر أمامنا لقيه أصحـابنا المنهزمون فلا

يعجزون عنه! ويوسف مصر على الامتناع من ذلك. ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند وهو لا يلوي على شيء، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل طليطلة إلا في دون المائة. وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين، فقال شيع ابن عباد: لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الصواب والرأي في معالجته، لكن خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع الاستغناء عنه! وقالت شيع يوسف: إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود إلى إسبانيا الإسلامية وقال آخرون: كلا الرجلين أسرحسوا في ارتغاء، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب. وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية: كتابي هذا من المحلة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب وقد أعز الله الدين، ونصر المسلمين، وفتح لهم الفتح المبين، وأذاق المشركين العذاب الأليم، والخطب الجسيم، فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه الهزيمة العظيمة، والمسرة الكبيرة، هزيمة أذفونش أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم. بعد إتيان النهب على محلاته، واستئصال القتل في جميع أبطاله وأجناده، وحماته وقواده، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فلله الحمد على جميل صنعه، ولم يصبني بحمد الله تعالى إلا جراحات يسيرة ألمت، لكنها قرحت بعد ذلك، وغنمت وظفرت. ولما فرغ يوسف من وقيعة يوم الجمعة، تواردت عليه أنباء من قبل السفن، فلم يجد معها بداً من سرعة الكرة، فانصرف إلى إشبيلية، فأراح بظاهرها ثلاثة أيام، ونهض نحو بلاده، ومشي ابن عباد معه يوم وليلة. فعزم عليه يوسف في الرجوع، وكانت جراحاته تثعب وتورم كلم رأسه، فرجع وأمر ابنه بالمسير بين يديه إلى فرضة المجاز حتى يعبر البحر إلى بلده. ولما دخل ابن عباد إشبيلية جلس للناس وهنئ بالفتح، وقرأت القراءة، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه. قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت

ذلك اليوم، وأعددت قصيدة أنشده إياها، فقرأ القارئ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ... (٤٠)﴾ [التوبة] فقلت: بعدًا لي ولشعري! والله ما أبقيت لي هذه الآية معنى أحضره إليه، وأقوم به واستشهد في ذلك اليوم جماعة من أعيان الناس، كابن رميلة المتقدم الذكر، وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما. وطار ذكر ابن عباد بهذه الوقيعة، وشهد مجده، ومالت إليه القلوب، وسالمته ملوك الطوائف، وخاطبوه جميعًا بالتهنئة، ولم يزل ملحوظًا إلى أن كان من أمره مع يوسف ما كان.

يمكن تعريف الإسلام في إسبانيا في ثمان حلقات:

عصر الولاة: 92 – 138 هـ. العصر الأموي: 138 – 422. حلول الطوائف: 422 – 484. عصر الموحدين: 484 – 640. الحروب الصليبية بالأندلس: 625 – 898. وسقوط غرناطة. عصر العرب الأخير: مرحلة الاضطهاد والتنصير (899 – 1017 هـ). ترحيل المسلمين نهائيًا من الأندلس (1018).

المقاومة والمعارك مع الفرنجة

خلال عصر الدولة الأموية بإسبانيا الإسلامية

حين سيطر المسلمون على إسبانيا، غفلوا عن منطقة جبلية كانت من بعد مصدر الخطر والمقاومة، هي منطقة «قنطرية» على مقربة من حدود فرنسا، وكانت جبلية وعرة، استهان بها المسلمون، واعتز بها الفرنجة وآزروها حتى قامت بها حكومة في (استورباس) التي استهدفت استعادة إسبانيا إلى الغرب، وذلك بمواصلة الحملات المتوالية على الدولة الإسلامية العربية، ولم تلبث هذه القوة أن استعادت ليون (101 هـ) بينما المسلمون يجتازون جبال البرانس إلى فرنسا. ثم استفحل شأن الأستوريين، وأمدهم الإفرنج بالمعدات

والإمدادات حتى استطاعوا أن يسيطروا على جليـقة وقشتالة، واستغلوا تنازع العرب، فلما انحلت الدولة الأموية إلـى «ولايات» وقام عليها ملوك الطوائف ازداد شعورهم بالقوة فقامت دول: نوارة، ليون، قشتالة، قطلونية، أراغون، البرتغـال. واحتاطت هذه الدول بإسـبانيا الإسلامـية فبـدأت معركة المقـاومة والإدالة، واستمرت فترات طويلة، بل إنها لم تتوقف في الأغلب، قد أمضى عبـد الرحمن الناصـر سنوات حكمه في الغزو والمـقاومة، وواصل أبو عـامر المنصور حركة المقاومة والإدالة من الفـرنجة، ففي خلال فترة حكم (27 عامًا) انتصر عليهم في خمسين موقعة وقضى حياته شهيدًا.

استمر هشام بن الحكم الثاني (365 - 401 هـ) حكمه على تعبئة خلال اثنين وعشرين عامًا في مواجهة ممالك ليـون ونوارة وقشتالية، وقطلونية. غير أن الفرنجة استطاعـوا أن يجتاحوا ثلث إسبانيا الإسـلامية حين انهارت الدولة الأمـوية، وقامت الإمـارات الأربع لملوك الطوائف: بنو زيري (غـرناطة) بنو عامر (بلنسية) وبنو عباد (إشبيلية) بنو هود (سرقسطة). وقد تنازع الأمراء فيما بينهم تنازعًا شديدًا، واستعان كل منه بالإسبان الفرنجة على خصومه، وبرزت للفرنجة مملكة كـانت نواة حركة استرداد الأندلس هي: «قـشتالة»: 350هـ ثم تلاقت مع دولة ليون في اتحاد عام 429 هـ فانتظمتا تمثـلان مملكة ضخمة لم تلبث أن حـملت لواء المقـاومـة والإدالة من المسـلمين إلى أن تولى ألفـونس السادس ملك قـشتالة، فاقـتحم طليطلة 478 م واتخذها قاعدة للدولة. وبدأ تهديد عنيف لأمـراء المسلمين، دفع المعتمد بن عـباد إلى مناداة (المرابطين) في مراكش، وكـان يوسف بن تاشفين 453 - 500 هـ قد جاء عـلى رأس موجة جديدة جددت شـباب الإسلام هي موجـة البربر في المغرب العربي، فـسيطر على المغرب الأقـصى والأوسط، وبنى مدينة مـراكش. وقد استـجاب للنداء فعبر إلى إسبـانيا الإسلامية وهزم الفرنجة في موقعـة حاسمة هي «الزلاقة» ثم

عاود الفرنجة الهجوم على مواقع المسلمين في إسبانيا الإسلامية من بعد عبر مرة أخرى عام 537 هـ، واندمجت دولة المغرب وإسبانيا الإسلامية في وحدة بقيادته لمقاومة غزو الفرنجة المتدارك. ثم لم يلبث «الموحدون» وهم موجة أخرى من البربر أن حلت محل المرابطين، وكان لهم دور ضخم في مقاومة الزحف الفرنجي على مملكة إسبانيا الإسلامية، فقد ألقوا الرعب في أوروبا فتنادت للتجمع لمقاومة الموحدين وللقضاء على إسبانيا الإسلامية المسلمة العربية. وكان أبرز قادتهم يوسف بن عبد المؤمن (557 - 580). ويعقوب المنصور (580 - 595).

استطاع المنصور أن يقتحم طليطلة عاصمة ألفونس التاسع ملك قشتالة، وأن يعيدها إلى الإسلام، وكانت الحروب الصليبية إلى الشرق قد أذنت بالفشل، ومن هنا ركزت أوروبا همها على تحرير القارة من الإسلام والعرب والمسلمين، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية في إسبانيا الإسلامية، عنيفة عاصفة، حملت لواء الدعوة إلى إخراج «الهراطقة» أي المسلمين من أوروبا. وقد واجه المسلمون هذه الحركة بصلابة وإصرار، وواصلوا الاشتباك مع الفرنجة في معارك، فأدالوا منهم. غير أن الموقف كان في صف القوى المتجمعة على أرضها، والتي ازدادت استقراراً وقدرة على مقاومة إمارات بدا عليها الضعف والتمزق والخلاف، حتى انهزم المسلمون في موقعة العقاب. (طولوز) عام 609 هـ 1212 م. ولم يلبث بنو مرين (1674هـ) وهم موجة من موجات البربر - الذين نصروا الإسلام - أن سيطروا على المغرب، وجاوزوا إلى إسبانيا الإسلامية، واشتبكوا مع الفرنجة في معارك عدة. غير أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأمراء بعضهم البعض، وبين أمراء إسبانيا الإسلامية، والذين عبروا إليهم من المغرب، واستند - بنو الأحمر آخر أمراء المسلمين في إسبانيا الإسلامية - على خصومهم في

الانتصـار على أشقائهم وجيـرانهم، ولم يلبث الفرنجة أن اسـتولوا على هذه الإمارات واحدة بعد الأخرى (قرطبة 645، إشبيلية 646 هـ، مرسيليا 695 هـ) ثم جاءت أقسى مراحل القضاء على العرب والإسـلام في إسبانيا الإسلامية، وفي أوروبا. عندما تضامنت مملكتـا فرديناند وإيزابيلا 884 هـ حيث لم تلبث غرناطة بعدها بضعـة عشر عامًا حتى أسلمت آخر أنفاسـها، وانطوت صفحة الإسلام والعروبة في إسبانيا.

وهذا إجمـال له تفصيل: فمنذ ضـعفت قوى «الموحدين» أخـذت قوى الإسبان والفرنجة في إثارة الاضطرابات، وكانت مملكتا قشتالة وأرغونة تحملان لواء المؤامرة وتؤلبان على مملكة الإسـلام المنقسم إذ ذاك إلى ولايات تتصارع، وأخذت «حـركة الاسـترجاع» التي بدأت مـنذ عصر ملوك الطـوائف تقوى، وزادها قوة واضمحلال الموحدين، الذين كـانوا الموجة التالية بعد المرابطين في إنقاذ إسـبانيا الإسلامـية من الخطر الحتم، ولم تلبث إمارة بلنـسية 636 هـ أن سقطـت في أيديهم، واتجه أهلهـا من المسلمين إلى غرناطة بـجنوب إسبـانيا الإسلامـية، واستـسلمت عاصـمة بني أميـة «قرطبـة» عام 623 هـ 1236 م. واتجهت قوى الغزاة إلى إشبيليـة، وتوحد ملوك إسبانيا ضد المسلمين، وأبدى المسلمون بسالة لا حد لهـا في كل مختلف عمليات الاستـرجاع فلم ينصرفوا عن موقع إلا بعـد أن استنفذوا كل مـا يملكون من قوى بشرية وحـربية. ولم يسلم المسلمون موقعًا واحدًا إلى الإسبانيين بدون قتال، وقد حاصرت الجيوش الإسبانية مدينة إشبـيلية وامتد الحصار ثمانية عشر شـهرًا، أبدى فيها المسلمون ضروبًا من الصبر والشجاعة، دون مدد أو مساعدة، فلم تستلم قواتهم 646هـ 1248 م إلا بعد أن استنفذت كل قـواها. ولم يبق بعد إلا مملكة غرناطة تحت إمارة بني الأحمـر، وهي رقعة ساحلية ضـيقة بالجنوب الشرقي لشـبه جزيرة أيبيريا محـصورة بين الوادي الكبير والبحر الأبيض، وقد تجمع المسلـمون فيها

بعد أن انتزعت منهم إماراتهم، واستمرت قائمة قرنين ونصف قرن (635 - 897) ولم تلبث ممالك إسبانيا الثلاث أن اتحدت على مواجهة «مملكة غرناطة» وعبر سلطان بني مرين إلى الأندلس بجيوش عظيمة عام 771 هـ: اشتبكت في معركة (طريف) مع الفرنجة وانتهت بهزيمتها. ولم تلبث مملكة غرناطة أن واجهت الخطر الإسباني بمفردها، وعمل الإسبانيون على إثارة الخلافات والفتن والدسائس بين بني الأحمر، ولم تلبث مملكة قشتالة أن استولت على جبل طارق 868 هـ 1426 م بعد أن توقفت النجدات الواردة من المغرب الأقصى. وبلغ الخلاف الداخلي أوجه في غرناطة حيث اقتسمها الإخوان. فأصبحتا مملكتين: غرناطة، ومالقة، وقع ذلك في نفس الوقت الذي اتحدت فيه قشتالة وأرغونة 884 هـ - 1479 م، ثم توالت الخلافات والمؤامرات، وتوالى الصراع بين الأسرة الحاكمة، وبين زوجات السلطان وأبنائه، حتى سيطر الإسبان على مالقة. وقد حوصرت إسبانيا حصاراً عنيفًا وثبت أهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الشجر، ولما علم حكام إسبانيا أن سلطان العثمانيين وسلطان المماليك بمصر عزما على نجدة الأندلس بادروا إلى احتلال موانئ إسبانيا الإسلامية، وأهمها مالقة، حتى يحولوا دون وصول أي مدد إلى إسبانيا الإسلامية، ولما طلب حكام إسبانيا إلى غرناطة التسليم عمدوا إلى آخر ما في استطاعتهم من قدرة على المقاومة، ووجد الإسبانيون مقاومة جبارة، هي مقاومة الفناء من المسلمين المحصورين في دائرة ضيقة، وكان الإسبانيون قد أحكموا الحصار على الغرناطيين وصمد المسلمون وصبروا على طول الحصار، وكان موسى بن أبي الغسان أبرز من حمل لواء المقاومة. وقد امتنع عن الخضوع والاستسلام ولم يمت شهيداً إلا بعد قتل مئات القشتاليين، وصبر المسلمون على طول الحصار ونفاذ الذخيرة، وتفشي الجوع والمرض، ولم تستلم غرناطة في 798 (3 ربيع الأول) 1492 م إلا بعد أن أعذرت إلى

الله بالمقاومة. وتقدم فرديناند وإيزابيلا إلى غرناطة ودخلتها الجيوش الإسبانية في مظهر رهيب. وبذلك انقرض آخر مظاهر الإسلام والعروبة من إسبانيا الإسلامية (92 - 897) بعد ثمانية قرون.

سقطت الأندلس بعد أن تخلت عنها الدول الإسلامية القوية، كالعثمانيين والمماليك، وكان حكام الإسبان قد أحكموا الحصار البحري عليها حتى لا تتسرب إليها أي معونة أو مدد من عالم الإسلام، وتعهد الإسبانيون في «وثيقة تسليم» غرناطة باحترام أمر المسلمين في دينهم وأملاكهم وحريتهم، والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج منهم إلى ديار الإسلام. غير أن الإسبان لم يصدقوا في عقدهم، ولم يلبثوا أن اضطهدوا المسلمين لتصفيتهم والتخلص منهم نهائيًا. واستطاع الكردينال كيمناس أن يحمل حكام إسبانيا على نقض شروط الأمان التي منحت للمسلمين، وبدأت دعوة جائحة إلى تنصير المسلمين، وفي عام 905 هـ 1499 م - صدر قانون تنصير المسلمين جبرًا، وتحريم إقامة شعائرهم الدينية، وإغلاق المساجد، وأحرق الكردينال كيمناس كتب التراث الإسلامي في غرناطة فاشتعلت النار في مئات الألوف منها، وزادت الحملة عنفًا على المسلمين. ففي 907 هـ 1501 م منع المسلمون من البقاء في إسبانيا، وثار المسلمون في جبال البشرات، فقاومهم الإسبان في عنف، وصدر قانون بإكراه المسلمين (الموريسكو) على ترك ألبستهم الخاصة، واتخاذ الزي الإسباني ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات، والتكلم بالعربية (956 هـ/ 1555 م) وحولت المساجد إلى كنائس، واندلعت الثورة مرة أخرى في جبال البشرات 986 هـ/ 1568 م بقيادة محمد بن أمية، الذي استطاع أن يضم إليه مختلف قوى البشرات، وقاوم المسلمون مقاومة فناء. وهم يعلمون أن أمر القضاء عليهم وسحقهم لا شك أنه يسير على القوى الإسبانية، ولكنهم لم يتخلفوا عن المقاومة، واستشهد ابن أمية وتولى بعده

(عبد الله). وثار المسلمون في بلنسية وانتقضوا، ولكن القوى الإسبانية استطاعت أن تقمع ثورتهم، وفي عام 1017 هـ وضعت نهاية المسلمين (الموريسكو) في إسبانيا حيث تقرر نفيهم وإجلائهم نهائيًا وحشدت لهم السفن. فذهب بعضهم إلى فرنسا وإيطاليا وإلى الهند وإلى مصر والأستانة، وذهبت الأغلبية الساحقة إلى المغرب العربي وتونس - ويقررالطاهر بن عاشور أن عدد المخرجين بلغ (300 ألف) ويردد قول المؤرخين بأنه ربما بلغ نحو المليون. سافر منهم إلى فارس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان ووهران وتونس (130 ألفا). ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفًا من الجوع والتعب، وخرج منهم إلى فرنسا مائة ألف فاشترط عليهم الإفرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا، فردوا من حيث أتوا، فاحتاروا في أمرهم، وقصدوا المراسي الفرنسية للسفر، فمات منهم كثير في فرنسا، ونجا قليل. وقد تسلط أعراب البوادي على كثير ممن خرجوا إلى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبوهم، ولم يسلم من ذلك إلا الذين خرجوا إلى تونس. ولا شك تكشف هذه الصفحة المؤلمة عن الصمود الذي عرف به المسلمون في إبان الأزمات والأحداث الكبرى مع القدرة على التضحية والاستشهاد، ذلك أن المسلمين لم يسلموا في أي جزء من أجزاء وطنهم إلا بعد أن بذلوا آخر ما في مقدورهم من قوة على التضحية والاستشهاد، كما تكشف عن أقسى صور الظلم والغدر التي واجهتهم. ولكن هل توقف المسلمون المخرجون من إسبانيا الإسلامية، هل انتهى أمرهم، «والحق أن لا» فإن هؤلاء المخرجين عاشوا وعاش أبناؤهم من بعد في مقاومة متصلة للفرنجة. فقد عمدوا إلى الانتقام من الفرنجة الذين حاولوا السيطرة على موانئ المغرب العربي ومراسيه. ذلك أن الإسبان والبرتغال حين طردوا المسلمين من إسبانيا الإسلامية، لم يكونوا ليقفوا عند هذا الحد، بل كانت خطتهم اقتحام سواحل المغرب، والانتقام من

المسلمين الذين ظاهروا إسبانيا الإسلامية في مخطط طويل لتطويق العالم الإسلامي والسيطرة عليه. ومن هنا بدأ الإسبان والبرتغال في اقتحام سواحل إسبانيا الإسلامية كمرحلة مجددة من مراحل الحروب الصليبية التي شنها عالم الغرب على عالم الإسلام. لقد فشل الصليبيون بالمشرق وسيطر العثمانيون على القسطنطينية وأخذوا يهددون أوروبا الغربية والوسطى، كان كل هذا بالإضافة إلى السيادة البحرية في مشرق حوض البحر الأبيض مما دفع الغرب إلى التركيز على مغرب حوض البحر الأبيض المتوسط، فاندفع الإسبان والبرتغال يغزون شواطئ المغرب العربي وكان هنري الملاح قد أعد خطة مع ملك البرتغال بملك الحبشة المسيحي للتعاقد والتحالف ضد المسلمين. وفي هذا المجال كان عمل المهاجرين من مسلمي إسبانيا بأسلافهم الذين قاوموا غارات السفن الإسبانية ضد السواحل المغربية، والانتقام من الإسبانيين الذين أخرجوهم من ديارهم، وقد حملت هذه الغارات طابع الجهاد، وشارك فيها سكان المغرب العربي. وقد بدأت على هيئة غارات متصلة على السفن الإسبانية، كانوا يعودون منها بالغنائم والأسرى، ومن ثم تكونت هذه القوة المرابطة في الثغور التي تحمل لواء الجهاد، والانتقام من الإسبان وتكون تحت قيادة هؤلاء المجاهدين أسطول جديد، وبرزت أسماء عروج وخير الدين، واستطاع خير الدين أن ينفذ 700 ألف مسلم إسباني، وقطعت هذه الحركة على البرتغال والإسبان محاولة الاستقرار بسواحل المغرب العربي واحتلالها، واستطاع الأخوان عروج وخير الدين (899 - 932) الاستيلاء على السواحل الجزائرية، واستخلاصها من الإسبان. وإذا كان سقوط إسبانيا الإسلامية في أيدي الفرنجة بعد ثمانمائة عام من إسلامها وعروبتها قد هز الشعراء والأدباء وبعض المؤرخين. فإن النظرة العلمية وفق نواميس التطور، وحركات المد والجزر في التاريخ كانت تكشف جميعها عن قلق واضح في هذا الجزء من

عالم الإسلام منذ اليوم الأول ما دام التوسع الإسلامي قد توقف عندها. فإن أوروبا المسيحية بكل مفاهيمها وقيمها وطبيعتها قد ظلت هذه القرون الثمانية تقاوم ولا تستسلم أبدًا لغزو الإسلام لها سواء من القسطنطينية أو من إسبانيا الإسلامية، وأنها طاولت بقاء هذه الدولة بالمؤامرات والفتن، والمقاومة، ولم تهدأ حتى ضعف المسلمون وتمزقوا، وانقسموا على أنفسهم.

وإذا كانت إسبانيا الإسلامية مرت بكل ما تمر به كل الدول من علامات التكون والقوة والضعف والانهيار بالرغم مما حملت في أعماقها من حضارة باهرة زاهرة، فإنها كانت في الواقع أشبه بالمحاصرة أو المعزولة عن عالم الإسلام بحكم وقوعها في أوروبا. وكان العدو أقرب من أهلها في المغرب، وكأنما كانت مملكة إسلامية منفصلة لها طابع واضح يجري في إطار طابع الإسلام، ولكن يختلف عنه بحكم البيئة الأوروبية والجوار والعقلية والتحديات المختلفة. ولكن إسبانيا الإسلامية كانت من ناحية أخرى هي أزكى ثمرات الحضارة العربية الإسلامية التي تكونت وتجمعت في قلب أوروبا إيذانًا بالدور الذي سيقوم به الغرب في تلقف هذه الحضارة وتنميتها، وإذا كانت الحروب الصليبية واتصال الغرب بالشرق قد قرب مرحلة النقل والترجمة، وتبني القيمة الحضارية العربية الإسلامية، فإن قوة التاريخ في تحركه وتطوره، قد نقلت مركز الثقل في الحضارة الإسلامية إلى قلب أوروبا نفسها ممثلا في قرطبة بوصفها البيئة المعدة والمتبناة لحمل أمانة الحضارة في هذه المرحلة بحسبان أن النمو والتطور الحضاري لن يتوقف إذا ضعفت أمة عن حمل أمانته وتنميته. ولقد استطاعت أوروبا فعلا أن ترفض الإسلام، وأن تجلي العرب عن أرضها، ومن مداخلها الشرقية والغربية ولكنها عجزت عن أن ترفض فكر الإسلام، وعقلية العرب، وأن تبدأ من حيث توقف المسلمون، وإن صاغت ذلك على نحو أو آخر محاولة أن تغضي إغضاء الناكر للجميل عن الدور

الإسلامي في الحضارة. هذا وقد كانت عوامل سقوط الأندلس هي نفسها امتداداً لعوامل توقف الإسلام عن التوسع في أوروبا، نتيجة ضعف روح الجهاد والإيمان بالعمل في سبيل نشر الإسلام وتبليغه وحمله إلى آفاق العالم على النحو الذي فعل الرواد الأولون بالإضافة إلى طابع الترف والدعة والحضارة والاستقرار ثم غلبه عنصر التمزق والخلاف والقصور عن القوة واليقظة، بينما أحرز العدو كل القوى الإيجابية للحضارة الإسلامية وفكرها، فاتحد وتسلح وآمن بحقه في استعادة أرضه ونشر دينه. ويمكن القول إجمالاً إنه لولا الموجتان البربريتان اللتان جازتا إلى إسبانيا الإسلامية، فأمدته الواحدة بعد الأخرى بقوة البقاء لا نقضي أجل دولة إسبانيا الإسلامية قبل ذلك بكثير، ولقد كانت هذه القوى التي أعادت شباب الإسلام قوى بدوية لم تتحضر[1].

* * *

(1) أنور الجندي، المرجع السابق، ص 319.

الفهرس